# المـــؤرخ ستيـــــفن رنسيمـــــان
# وكـــتابه تاريخ الحـــروب الصلـــيبية *

د.ناصر عبد الرزاق الملا جاسم
قسم التاريخ /كلية الآداب/ جامعة الموصل

من المظاهر اللافتة للنظر اننا ، وعلى امتداد العقود الأربعة الماضية أو يزيد ، لا نكاد نجد باحثا عربيا تصدى للكتابة عن الحروب الصليبية، إلا وتصدر كتاب المؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان (تاريخ الحروب الصليبية) طليعة مصادره الغربية، حيث كان مَعين الكثير من تصوراتنا ومفاهيمنا عن الجانب الصليبي. لكن الظاهرة الأكثر غرابة إن أغلب من أكثروا النقل عن رنسيمان لم يمضوا ابعد من ذلك، صوب طرح التساؤل عن شخصية هذا المؤلف وعن مكانة كتابه ضمن سياق بيئته التي صدر عنها، والتي توجه لمخاطبتها بالأصل، فذلك –بلا ريب – شرط أساس في فهم الكتاب وتقويم أرائه وأفكاره تقويما علميا سليما. فلابد – ونحن نواصل الاستشهاد بنصوصه – أن نسعى أولا أن نزن كتابه بميزان عصره ، فنتفهم أولا شخصية مولفه وموقع كتابه سواء بين مؤلفات رنسيمان المتعددة، او في سياق ألكتابة التاريخية الغربية عن الحروب الصليبية، وذلك من خلال التمعن في طبيعة تقبل المختصين بدراسة الحروب الصليبية في عصره لكتابه أو اعتراضهم على تضمنه من آراء ، وأين يمكن وضع هذا الكتاب –بما اشتمل عليه من مواقف وآراء– اليوم أي بعد أكثر من نصف قرن على كتابته في حقل الكتابة التاريخية الصليبية...؟

كل تلك الأسئلة–على أهميتها البالغة– لم تحظ للأسف بعناية الباحثين العرب، مما يؤشر ظاهرة غير ايجابية مفادها إننا مازلنا –في أحيان كثيرة – نتوقف عند إشكالية الاقتباس عن الآخر أو رفض ذلك، دون أن ندعم اقتباساتنا–في أحيان كثيرة– بتقصي مصادرها، أو إدراك قيمتها الحقيقية ضمن السياق الأصلي الذي انطلقت منه. وهذا الإغفال قد يقود–وقد قاد بالفعل– إلى فصم كثير من النصوص والإحكام التي نستعين بها عن بيئتها، فنضفي عليها مظاهر أو سمات لم تكن منها أو قد نبخسها مَلَكاتها، أو ربما نجعلها تنطق بما لم يدر بخلد من صاغها أو من تبناها أو حتى من انتقدها بالأصل .

*يزجي الباحث خالص امتنانه للجمعية البريطانية للدراسات البيزنطية، ممثلة بشخص رئيس الجمعية الدكتور مايكل ساكسباي الذي اتاح له الفرصة لمناقشة عدد من المفاهيم المتعلقة بمكانة ومواقف المؤرخ ستيفن رنسيمان من التاريخ البيزنطي والحروب الصليبية وتثبيت أو تعديل القناعات التي كانت تتبلور أثناء مراحل انجاز هذا البحث .

لأجل ذلك يستهدف هذا العمل التوقف أمام كتاب المؤرخ البريطاني السير ستيفن رنسيمان (تاريخ الحروب الصليبية) والبحث في القيمة الفعلية للإسهام الذي خلفه في دراسة الحروب الصليبية من خلال التنبه إلى إشكاليات مهمة هي :أولا التمعن في سيرة رنسيمان الشخصية والعلمية من اجل استجلاء محطات ومقومات تبلور الموقف المتفرد الذي اختطه لنفسه في معالجة الحروب الصليبية ومنظوره الخاص في فهمها. والإشكالية الثانية هي البحث في المكانة التي احتلها هذا الكتاب بين دراسات المؤرخ رنسيمان المتعددة أما الإشكالية الثالثة فتسعى لرصد أهميته ضمن سياق الكتابات التاريخية الأوربية عن الحروب الصليبية من خلال استقصاء طبيعة التلقي الغربي لهذا الكتاب وتباين وجهات النظر في تقييمه، في الخمسينات عندما نشر للمرة الأولى أو الآن بعد التراكم الكبير للدراسات الغربية عن هذا الموضوع، وتطور المفاهيم والمناهج في تناوله .

**ستيفن رنسيمان : سيرة حياة**

يتميز ستيفن رنسيمان ( واسمه الأصلي جيمس كوجران ستيفنسن رنسيمان)عن الكثير من أنداده من المؤرخين الغربيين انه سليل أسرة بريطانية ثرية، لعبت أدواراً خطيرة في مجال السياسة والاقتصاد منذ أواخر القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين، فقد ولد في نورثمبرلاند على الحدود الاستكلندية- البريطانية في عام ١٩٠٣. وكان أجداده الأوائل قد عبروا هذه الحدود وغادروا مناطقهم الجبلية ليستقروا جنوبا في المنطقة السهلية شمال انكلترا. إلا أن مكانة أسرته ارتبطت بجده ووالده الذين كانا قد أصبحا عضوين في الوقت نفسه في مجلس أللوردات البريطاني، وقبل ذلك كان والده ووالدته أول عضوين متزوجين يشغلان معا مقاعد في مجلس العموم عبر التاريخ الطويل لهذا المجلس.[١]

وفيما يتعلق بجده فقد حصد ثروة هائلة من العمل البحري ، فأصبح احد أقطاب سفن الشحن في المملكة المتحدة، ونال اثر ذلك عضوية مجلس اللوردات.[٢] أما الأب والتر رنسيمان فانه كان من قيادات حزب الأحرار البريطاني، وشغل مناصب سياسية رفيعة منذ مطلع القرن العشرين وحتى منتصفه (حيث توفي في عام ١٩٤٩) في حكومات كامبل بنرمان وهربرت اسكويث ونيفل جامبرلن، من بينها وزارة الخزانة ووزارة المالية وإدارة مجلس التجارة ، إلا أن ابرز الأدوار التي لعبها هي اضطلاعه عام ١٩٣٨ بمهمة حل مشكلة السوديت في بين هتلر و جيكوسلوفاكيا، والتي أسفرت عن توقيع معاهدة ميونخ في العام نفسه. [٣] أما والدته هيلدا ستيفنسن، فكانت بدورها من كبار القيادات السياسية النسوية في حزب الأحرار في بريطانيا ، وأسندت إليها مناصب رفيعة إلى جانب عضويتها في مجلس العموم ،علاوة على كونها المتخرجة ألأولى من كلية جريتون للبنات في جامعة كمبردج في تخصص التاريخ.[٤] وفي ظل أسرة كهذه كان من الطبيعي أن ينشأ رنسيمان نشأة ارستقراطية مكنته أن يحظى بأعلى مستويات التعليم منذ نعومة أظفاره، ويسرت له فيما بعد، ولاسيما بعد وفاة جده الثري وحصوله على حصة طيبة من الإرث عام ١٩٣٧، أن يتفرغ للبحث العلمي.

وبالنسبة لتعليم رنسيمان المبكر يذكر إن والديه اختارا له مربية حازمة بدأت بتعليمه اللغة الفرنسية وهو في سن الثالثة.[٥] وفي سن السابعة استبدلت بمربية أخرى بدأت بتعليمه وأخته اللاتينية واليونانية ، ويقول رنسيمان في شأن ذلك :

"جاءت المربية لتعليمنا أنا وأختي اللاتينية وسني دون السابعة، وفي السنة التالية بدأت بتعليمنا اليونانية. لقد كانت تحدثنا عن الرومان وعن الإغريق القدماء كما لو كانوا يعيشون بين ظهرانينا،ودفعتنا لتمثيل مسرحيات باللاتينية كما سبق أن فعلنا ذلك بالفرنسية. وسرعان ما توطد عزمي على حب اليونانيين أكثر من حبي للرومان، وأدين لها باستعدادي لمحاولة قراءة أي لغة أوربية تعترض طريقي".[٦]

وبالفعل، وبفضل هذا التدريب المبكر، أصبح رنسيمان يمتلك الاستعداد لتعلم العديد من اللغات وفي مقدمتها لغات شرق أوربا،حيث درس الروسية في سن الحادية عشر واتبعها لاحقا بلغات أخرى مما سيصبح عنصر تفوقه في خوض حقول معرفية لم يكن بمقدور الكثيرين مناجزته بها .

ولعل حبه لليونانية الذي تلقاه منذ سنيه الأولى وترجيحها على اللاتينية سيدفع به في المستقبل إلى الانحياز بمحبته إلى الكنيسة الارثذوكسية وتفضيلها على الكنائس الغربية،والى بيزنطة وإيثارها على الغرب الأوربي، كما سيمر معنا .

وفي سن السادسة عشر أُرسل رنسيمان إلى كلية ايتون في كمبردج، ليتلقى تعليما رفيعا في تخصص اللغات الكلاسيكية، وليرافق أبناء الطبقة الراقية ممن سيلعبون أدوارا بارزة في مجالات مختلفة من أمثال الروائي جورج اورويل وابن رئيس الوزراء اسكويث.[٧] وفي هذه المرحلة بدأ تأثير والدته يظهر في شخصه، فأراد أن يحذو حذوها ويتوجه لدراسة التاريخ، ووقع اختياره على دراسة التاريخ الوسيط . فحصل على منحة دراسية في هذا التخصص في كلية ترنتي في الجامعة ذاتها عام ١٩٢١.[٨]

وكانت الدراسة في ترنتي ،التي امتدت حتى عام ١٩٢٥، بمثابة نقطة تحديد مرتكزات حياته التالية، ففي المقام الأول ترسخ اهتمامه بالتاريخ اليوناني الكلاسيكي ومن بعده التاريخ البيزنطي. ومن جانب آخر بدأ يكتسب الصداقات. ومن بين من اتصل بهم في هذه المرحلة مجموعة من العلماء والمثقفين ممن استوطنوا كمبردج لإغراض التدريس أو الكتابة أو ممارسة الفن وعرفوا بجماعة (بلومزبري)نسبة الى منطقة بلومزبري في لندن، من بينهم الروائية فرجينيا وولف وعالم الاقتصاد جون مايارد كنز وعالم المسرح دادي رينالدز والروائي والناقد ليتن ستراتشي والرسام كلف بيل وزوجته فانيسا والرسام والناقد الأكثر تأثيرا في بريطانيا روجر فراي.[٩] وقد كان هؤلاء بصدد تطوير مواقف نقدية واجتماعية جديدة في مجالات مختلفة بين الرواية والأدب والفن والسياسة والدراسات الاجتماعية والاقتصادية .[١٠] وقد تمثل تأثر رنسيمان بأفكار هذه الجماعة في رغبته بالتحرر من التصورات التقليدية في فهم التاريخ، ولاسيما التاريخ البيزنطي ومن ثم الحروب

الصليبية، فيشير محرر التايمس في تأبينه لرنسيمان قائلا: " إن هجمات ليتون ستراتشي على عظمة الإمبراطورية البريطانية قد مثلت سابقة لرنسيمان في شكه المتزايد في محاولات الغزو السابقة، بينما ساعده حماس روجر فراي وكلف بيل لتغذية عنايته بالفن البيزنطي"[١١].

وعلى قدر تعلق الأمر بالدراسات البيزنطية فقد استوقف رنسيمان قلة اكتراث البريطانيين بهذا الحقل ، فأراد، كما ذكر صديقه انتوني برابر، أن يسبح ضد التيار ويعنى بدراسته بعد أن كان شبه مهمل.[١٢] وينحي الكثيرون باللائمة في هذا الإهمال على المؤرخ ادوارد كيبون(١٧٢٣-١٧٩٢) . إذ أن هذا المؤرخ قد رسخ في كتابه الشهير (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) تصورات غير ايجابية بشأن التاريخ البيزنطي، خلقت نفرة من بيزنطة وتاريخها وحضارتها.[١٣]

وقد تحدثت المؤرخة اليونانية الأصل انجليكي لايو عن ذلك قائلة :

" غذّى ادوارد كيبون مقتا عميقا للتاريخ البيزنطي، ولكونه صاحب أسلوب لغوي بليغ ، يصيغ خطابه كأنه يعزف على آلة موسيقية ، أصبح كتابه ( اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ) محط عناية كل دارس من الناطقين بالانكليزية، فأسس لوجهة نظر سلبية تجاه الإمبراطورية البيزنطية. ولأنه كتب بمثل هذه اللغة المُميّزة، فان وجهة نظره هذه ما زالت ، على تقادم عهدها، تجذب بعض الناس ".[١٤]

ومن الواضح إن انجيلكي كانت تقصد عبارة كيبون الشهيرة " إن التاريخ البيزنطي ليس إلا "رواية مملة وواحدة من الضعف والتعاسة ".[١٥] أو وصفه الأقسى للبيزنطيين بأنهم : تجمّع فاسد من الحكام الجبناء والمنحطين، والخصيّان والمتخنثين، والعسكر الخائف، وألاساقفة المتحاملون ، جميعهم سوية، خَلقوا تأريخا مخزيا. في حد ذاته، هو التاريخ البيزنطي.[١٦]

فقرر رنسيمان، وفقا لبرابر، أن يضع بقوة حقل الدراسات البيزنطية في متناول القارئ العام ، متسلحا بمقدرته المبكرة والاستثنائية بمعرفة اللغات، ولاسيما لغات شرق أوربا. وكان حجة الدراسات البيزنطية في بريطانيا آنذاك المؤرخ جون بيوري مقيما في عزلة تكاد تكون مطبقة في كمبردج[١٧] . فقرر الشاب الحيوي أن يقتحم عالم بيوري، فصده المؤرخ الكبير.[١٨]

ويستذكر رنسيمان في آخر مقابلة صحفية أجراها في اليونان، قبل بضعة أشهر من وفاته، لقائه الأول ببيوري بقوله :" كان لقاءً عصيبا في مكتبه في جامعة كمبردج، فقد كان أستاذاً مشهوراً، ولم يكن بحاجة للتعاطف معي، واخبرني انه إضاعة للوقت أن ادرس تاريخ شرق أوربا في العصور الوسطى دون أن أجيد اللغات السلافية".[١٩] لكن ذلك لم يفتر من عزيمته ، فبادره مرة وأخرى مغريا إياه بأنه يجيد اللغة الروسية، فدفع إليه بيوري بعدد من النصوص باللغة البلغارية طالبا منه أن يعود إليه بعد أسبوعين وقد قام بتحقيقها.[٢٠]فنجح مسعى رنسيمان وأمال له بيوري جانبا من عنايته ، فأصبح ، على حد قوله – طالبه الأول

والوحيد.[٢١] وعندما صُد رنسيمان عن القدوم إلى بيت أستاذه ، كان يقتنص نزهاته بعد الظهر لكي يستوقفه ويستدر منه علمه، وفي شأن ذلك يقول "اعتدت مرافقته حاملا دفتر ملاحظات، لقد كان يمتلك معلومات ضخمة وعقل فطن، ولم يكن بحاجة للرجوع إلى النصوص والأبحاث لأنه كان يعرف ما هو الجواب".[٢٢]
وقد عبر رنسيمان عن دينه لأستاذه في مقدمة كتابه الأول بقوله :
"أريد أن أعلن عن ديني للمساعدة الشخصية للراحل الأستاذ بيوري الذي وضع أقدامي على هذا الطريق ورعى خطاي الأولى فيه".[٢٣]

أما المظهر الآخر الذي ترسخ في شخصية رنسيمان في هذه المرحلة فكان حبه للسفر وانعكاس هذا الحب على فهمه للتاريخ وإيمانه بتنوع التجربة الإنسانية. وقد بلغ ولعه بالسفر مبلغا كبيرا إلى حد انه أعطى لمذكراته الشخصية التي نشرها عام ١٩٩١ عنوان ( أبجدية المسافر : مذكرات جزئية ).[٢٤] وكانت أولى سفراته في هذه المرحلة، حيث سافر عام ١٩٢٤ في رحلة حول العالم للاستجمام من مرض ذات الرئة بلغ فيها الصين، وذكر انه لعب كثنائي بيانو مع إمبراطورها الأخير.[٢٥] إلا أن أجمل ذكريات رحلته كانت عندما زار اسطنبول بعد أسابيع قليلة من عزل السلطان العثماني، مستقلا إحدى بواخر الشحن التي كان يملكها جده. وعن احتكاكه الأول مع المدينة التي شغل بدراستها طوال حياته يقول المؤرخ انتوني برايز:

" لاحت اسطنبول لرنسيمان للمرة الأولى عند خط الأفق ، وهو على متن سفينة جده صن بيم ، حيث بدا لناظريه الدخان المتصاعد من معامل يديكولي باتجاه منارات ايا صوفيا ، وذلك في نيسان ١٩٢٤ . لقد كانت الجمال تتهادى على جسر غلاطة وكانت النساء المنقبات يتجولن في شارع دي بيرا الكبير وكانت أسوار ثيودسيوس ما تزال شاخصة" .[٢٦]

أدى افتتان رنسيمان باسطنبول إلى قراره – بعد تخرجه من ترنتي في العام التالي – أن يكرس حياته لدراسة التاريخ البيزنطي والكنيسة الارثذوكسية، فكان أن وطد صلته ببيوري واتخذه مشرفا له في رسالته للدكتوراه التي نشرها عام ١٩٢٩ تحت عنوان ( الإمبراطور رومانوس ليكابينوس وعصره). وحصل بموجبها على زمالة في كليته عام١٩٢٧. وقد أكد مراجعو الكتاب على ريادة رنسيمان في عمله هذا، فسجلت باحثة بريطانية كانت تعاني بدورها من وطأة إهمال البريطانيين للدراسات البيزنطية ، ألا وهي جورجينا بكلر ، قائلة: "لقد تُرك التاريخ البيزنطي رازحا تحت الأنقاض لا يسأل عنه احد ، فجاء السيد رنسيمان ليكون احد العرابين لهذا التاريخ ".[٢٧]وقيمة انجاز رنسيمان بأنه قدم أول عرض بالانكليزية عن التاريخ البيزنطي في القرن العاشر الميلادي مكملا بذلك جهود مشرفه بيوري الذي توقف عند القرن السابق[٢٨].علاوة على تفوقه في الاستعانة بالمصادر السلافية . وقد عد الكتاب الدراسة الأكثر عمقا بين أعماله المختلفة .[٢٩]

وكان ابرز ما لفت انتباه هؤلاء جملة مسائل بينها: تناول رنسيمان للحياة اليومية ومظاهر الحضارة البيزنطية ومعالجة رنسيمان المتفوقة لعلاقة الإمبراطور البيزنطي بالإمبراطورية البلغارية ، إذ أحاط رنسيمان –برأيهم – بصورة لافتة للنظر بموضوع تفتقر اللغة الانكليزية إلى دراسات عنه.[٣٠] ولعل تنبيه النقاد إلى أهمية هذين الموضوعين هو ما حفز رنسيمان ليقدم في العام التالي (١٩٣٠) كتاب (الإمبراطورية البلغارية الأولى)،[٣١] واتبعه بكتاب آخر عنونه بـــ(الحضارة البيزنطية) عام ١٩٣٣ ، وهو كتاب سيصبح كتابا شعبيا ويعاد طبعه عشرات المرات.[٣٢]وبهذه الكتب الثلاثة المبكرة تم الاعتراف به رائدا في الدراسات البيزنطية في بريطانيا[٣٣].

أما في مجال التدريس فقد سجل طلبته إعجابهم بشخصيته وغزارة علمه وسعة افقه ، فكان وفقا لمحرر التايمس ، دليلا وصديقا ناصحا ومحببا لطلبته ، ومن بينهم من سيكون له دور سياسي لامع من امثال غي بوركيس ونويل انان. وقد بلغ عدد المتخرجين تحت إشرافه من طلبة البكالوريوس حتى مغادرته كمبردج أربعة وعشرين طالبا.[34] )واشرف على طالب واحد للدكتوراه ألا وهو المختص البارز بالتاريخ البيزنطي دونالد نيكول الذي سجل قائلا: "كان رنسيمان نبيلا بما يكفي ليوافق على الإشراف على رسالتي للدكتوراه ، وهو يعد العدة لمغادرة كمبردج، وفي موضوع لم يكن–باعترافه –يعنى كثيرا به. وقد كانت جلسات الإشراف تتم في مكتبة نادي الاثنيوم في لندن".[٣٥] وقد واصل رنسيمان خلال السنوات العشر التي أمضاها ضمن الهيئة التدريسية في كلية ترنتي هواياته في السفر، فأفاد من العطل التي كان يحصل عليها لزيارة العالم، فزار اليونان في عام ١٩٢٩ وتجول في اغلب مدنها على الأقدام. [٣٦] وعاود ثانية زيارة اسطنبول ، ومنها زار مصر وفلسطين وسوريا ، ثم عاد لزيارة مدينته الاثيرة اسطنبول ثالثة عام ١٩٣٤ وتنقل في الاناضول وسوريا وفلسطين[٣٧] .

وكما سبق القول ، فان وفاة جده الثري عام ١٩٣٧، قد عادت إليه بإرث كبير حفزه للاستماع لنصيحة المؤرخ البارز جورج تريفليان الذي نصحه بمغادرة كمبردج إذا أراد أن يصبح مؤرخا، [٣٨]فقرر التخلي عن عضوية الهيئة التدريسية في ترنتي، والتفرغ للسفر والكتابة. فقادته قدماه إلى بلاد اليونان مرة أخرى ومنها إلى القسطنطينية، فتسلق سلالم آيا صوفيا ونزل إلى خنادق القصر الإمبراطوري ، ثم تعقب على الأقدام خط سير الحملة الصليبية الأولى في تركيا، مستكشفا تكتيكات معركة دورليوم التي وقعت بين جنودها وسلاجقة الروم عام ٤٩٠هـــ/١٠٩٧.[٣٩] ، ثم حظي بمقابلة اتاتورك قبيل وفاته.[٤٠]

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية ، فقادته إلى البلاد التي أحبها واختص بتاريخها، فرتب له تلميذه السابق كي بوركيس والموظف البارز بوزارة الخارجية، وظيفة ملحق صحفي في صوفيا في عام ١٩٣٩ ،وانتقل منها إلى القاهرة في العام التالي ، ومن بعدها القدس رقيبا للمطبوعات والأفلام. [٤١]

وفي عام ١٩٤٢ عرض عليه الرئيس التركي عصمت اينونو منصب أستاذ الفن والتاريخ البيزنطي في جامعة اسطنبول فشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٤٥.[٤٢] وكانت اسطنبول الجامعة الوحيدة التي شغل فيها كرسي الأستاذية.[٤٣] وكان لديه فيها مجموعة متنوعة من الطلاب والأصدقاء، غذى فيهم حب التاريخ والفن البيزنطي. وكان وجوده في اسطنبول فرصة للتخطيط لكتابه عن الحروب الصليبية الذي بدا التفكير في كتابته عندما كان في القدس قبل ذلك بسنوات،وناقشه مع الجنرال ويفل في دمشق[٤٤] .

وبعد أن آذنت الحرب بالنهاية تخلى رنسيمان عن منصبه الأكاديمي والتحق بمنصب آخر يعبر فيه عن حبه للدراسات البيزنطية ، ألا وهو منصب مدير المجلس الثقافي البريطاني في أثينا الذي شغله حتى عام ١٩٤٧. [٤٥] وقد شعر رنسيمان بسعادة غامرة أثناء وجوده في أثينا. وفي هذا الشأن يسجل في رسالة بعثها لأخيه : "الحياة في أثينا جميلة للغاية ، المناخ أفضل مناخ في العالم والبلد هي الأروع والناس مع كل عيوبهم عطوفون للغاية ،وعندي شقة لطيفة تطل على مشاهد لا نظير لها:الاكروبوليس، البحر، جزر البيلوبنيز ، فما الذي يمكن أن يريده المرء أكثر؟"[٤٦]

وبالمقابل فقد نجح رنسيمان في اكتساب محبة اليونانيين ، ولاسيما العاملين معه في المجلس، فيذكر احدهم بان رنسيمان كان الأنموذج على العالم الانكليزي والرجل الجنتلمان.[٤٧] " ليصبح – كما سجلت انجيلكي– من يزرع محبة التاريخ البيزنطي في نفوس اليونانيين أنفسهم، ويتحول اسمه لديهم مرادفا لبيزنطة" .[٤٨]

لكن –بالرغم من ذلك – لم يستطع رنسيمان صبرا أن يبقى ملتزما لفترة طويلة بعمل ثابت وبمهام رسمية محددة حتى لو كانت في جانبها الأساس ثقافية، فأصابه الامتعاض من المجلس وقرر التخلي عن منصبه والعودة إلى بريطانيا،[٤٩] ليعيش عقوده الخمسة التالية ، كما وُصف ، وأحب هو أن يوصف دائما، عالما متفرغا مستقلا يعيش هو والتاريخ جنبا إلى جنب.[٥٠] وتوزعت حياته في محاور تتمثل بالرحلات وبناء الصداقات والمحاضرات العامة وشغل المناصب الشرفية والاهم كتابة التاريخ .

وعلى قد تعلق الأمر برحلاته حول العالم يمكن القول بأنه كان رحالة من طراز رفيع تنقل بين مشارق الدنيا ومغاربها وشمالها وجنوبيها، بين الصين وفيتنام وسيام والفليبين في أقصى الشرق ولوس انجلس في الولايات المتحدة غربا وكندا والاسكا وروسيا والقوقاز شمالا إلى امريكا الجنوبية وإفريقيا واستراليا وجزر فيجي جنوبا.[٥١] وقد احتفظ من رحلاته هذه بالكثير من الذكريات الثرية والممتعة التي نبعت من صداقات وطيدة ليس على صعيد طبقات المجتمع العليا فحسب، وإنما أيضا لعامتهم. وبقيت هذه الذكريات تثير متعة واندهاش مستمعيه ، وتلون محاضراته العامة والفصول الدراسية التي كان يلقيها عبر العالم ، فأصبح بنظر مستمعيه محاضرا محببا جدا يلذ سماعه. وفي هذا الشأن تقول المؤرخة انجليكي :

" إن شخصيته ، ونمط حياته غير التقليدي تماما جعل منه شخصاً يبهر من يقابله من أول وهلة ،ويثير اهتمام أي امرئ يتحدث معه . واستذكر مرة، في إحدى المناسبات التي لن أنساها، أنه قدر لنا إن نكون معا في زيارة لإحدى الجامعات الاميركية ... الطلبة الذين حضروا المحاضرات كلهم طلاب مرحلة البكالوريوس شباب أذكياء لكن ليس لديهم إلا القليل من المعرفة عن التاريخ البيزنطي، فخلب لبهم رنسيمان. اذكر كيف جلسوا القرفصاء حول كرسيه وتعلقت عيونهم وحواسهم بكل كلمة قالها ،مستمتعين لكل قصة يذكرها عن بيزنطة وعن البلقان وعن التاريخ ، ويقينا إن من الصعوبة أن تأسر اهتمام جمهورا كهذا وان تتحدث عن هذه الموضوعات".[٥٢]

لقد كان رنسيمان محاضرا من طراز رفيع تعلق به مستمعوه، وهو يلقي فصولا دراسية في جامعات بالغة التنوع من بينها جامعة بغداد التي درّس فيها في الخمسينات، وترك في نفس طلبة كلية الآداب والعلوم أثراً لا ينسى، وهو يحاضر عن تاريخ الحضارة البيزنطية،[٥٣] تلك المحاضرات التي ترجمها صديقه المؤرخ صالح احمد العلي.[٥٤]ودرّس رنسيمان كذلك في القاهرة وبيروت وفي بيشاور في باكستان.[٥٥]أما سلاسل المحاضرات التذكارية التي ألقاها فتوزعت بين اوكسفورد وسانت اندروز وكمبردج وبلفاست وهارفارد ولوس انجلس وسواها.[٥٦] وقد بلغ عدد تلك المحاضرات ، والتي رقنها بنفسه على الآلة الكاتبة ٢٤٢ محاضرة. وقد اقر العالم الأكاديمي لرنسيمان بمكانته العلمية الرفيعة فاختير عضوا في الأكاديمية البريطانية عام ١٩٥٧ ونصب فارسا في العام التالي ، كما حصل على مناصب شرفية متعددة مثل رئيس الرابطة الهيلينية الانكليزية (١٩٥١-١٩٦٧) ورئيس المعهد البريطاني للآثار في أنقرة(١٩٦٠-١٩٧٥) ونائبا للرئيس حتى وفاته عام ٢٠٠٠،[٥٧]علاوة على توليه الوصاية على المتحف البريطاني بين عامي ١٩٦٠-١٩٦٧،ومنصب مستشار متحف فيكتوريا والبرت، ونائب رئيس مكتبة لندن ١٩٧٤-٢٠٠٠، وغير ذلك من المناصب الشرفية. وبالمقابل فقد نال سبع درجات دكتوراه فخرية من جامعات متعددة في بريطانيا والعالم[٥٨]وكانت آخر مآثره هو تبرعه بمبلغ الجائزة المالية التي منحته اياها مؤسسة اوناسيس ومقدارها ١٢٥ الف دولار لغرض بناء ارشيف خاص لمكتبة جبل أثوس في اليونان،ذلك الموقع ألديني المقدس. وقد استقل طائرة هليوكوبتر في تموز عام ٢٠٠٠ من لندن ليحضر حفل الافتتاح، وعاد في اليوم نفسه إلى بريطانيا، ولم تكد تمضي اشهر قليلة حتى قدر لصفحة حياته المديدة أن تطوى للابد، وذلك في الثاني من تشرين الثاني في العام نفسه، لكن يبقى السؤال كم ستمضي من السنين لكي تطوى صحائف كتبه للأبد ؟؟؟

**مؤلفات رنسيمان**

إذا كان رنسيمان قد عاش حياة حافلة على المستوى الاجتماعي والأكاديمي، فأنه كان حريصا على يجد لنفسه اوقاتا يتفرغ فيها للكتابة، فبعد كتبه الثلاثة المشار اليها سابقا نشر ، اثر عودته من اليونان عام ١٩٤٧

كتابه عن (المانوية في العصور الوسطى) وهو أول اسهاماته في حقل سيختص به وهو التاريخ الديني. ثم قرر أخيرا الشروع بانجاز عمله ألأشهر (تاريخ الحروب الصليبية) فأخلد الى العزلة في جزيرة ايك في الشمال الغربي من اسكتلندا، والتي كانت تملكها أسرته. ورتب تدفق شحنات الكتب إليه من لندن وشرع بالكتابة... فاصدر مجلده الأول عام ١٩٥١ والمجلدين التاليين عامي ١٩٥٣ و١٩٥٤ على التوالي[٥٩].

وعلى الرغم من النجاح الكبير الذي حصده هذا الكتاب لم يتوقف عن النشر، فصدر له عام ١٩٥٥ كتابه(الانشقاق الشرقي)ويتناول كما يذكر العنوان الجانبي للكتاب، الانشقاق الديني بين البابوية والكنائس الشرقية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.[٦٠]واتبعه بكتاب (الصلاة الصقلية)عام ١٩٥٨ وفيه تحدث فيه عن الأوضاع في البحر المتوسط في القرن الثالث عشر، منطلقا من المذبحة التي ارتكبها الصقليون عام ١٢٨٢ في صفوف المحتلين الفرنسيين بعد ترتيلهم للصلاة في يوم عيد الفصح.[٦١] أما كتابه سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ فقد نشر للمرة الأولى عام ١٩٦٥، وعد من الكتب الأثيرة إلى نفسه. وفيه يقدم رنسيمان شهادة منصفة بحق العثمانيين عندما يقارن بين ما قاموا به تجاه البيزنطيين وبين وما قام به الايطاليون من مذابح ونهب بحق إخوانهم المسيحيين إبان الحملة التي حملت شعار الصليب عام ١٢٠٤،ويعلق برابر قائلا كان بمقدور رنسيمان أن يغفر للعثمانيين احتلالهم القسطنطينية لكنه لم يجد جريمة اعظم من جريمة احتلال الصليبيين للمدينة.[٦٢] وفي كتابه هذا والكتاب الذي أصدره بعده مباشرة والمعنون (الكنيسة العظيمة في الأسر) يتحدث رنسيمان عن تواصل الكنيسة الارثذوكسية في اسطنبول تحت الحكم العثماني، ليدلل على التسامح الديني الذي تميز به المسلمون.[٦٣]وكلا العملين امتداد لعنايته بالتاريخ الديني ، وتعبير عن تعلقه بالكنيسة الشرقية التي فضلها كثيرا على الكنائس الغربية ، حيث عدها أكثر روحية وأعمق إخلاصا لجوهر الدين.[٦٤] وسيتواصل رنسيمان في تناول هذا الموضوع في كتاباته اللاحقة،فنشر في عام ١٩٧٢ كتابه (الكنائس الارثذوكسية والدولة العلمانية)،والحق به عام ١٩٧٧ كتابا بعنوان (الثيوقراطية البيزنطية).

وبقيت بيزنطة في حضارتها وفنونها وتاريخها شغله الشغل، فغطت كتاباته عنه سنيه الأخيرة فنشر عام ١٩٧٠ كتابه (النهضة البيزنطية المتأخرة)، واتبعه بكتاب (أسلوب وحضارة بيزنطة) وذلك عام ١٩٧٥ ، وكتاب عن مدينة مسترا ١٩٨٠ وهي المدينة البيزنطية التي كرمته وأطلقت اسمه على احد شوارعها.[٦٥]وختم كتبه بكتاب في أدب الرحلات (بعنوان أبجدية المسافر) عام ١٩٩١[٦٦].علاوة على عشرات الأبحاث العلمية ومئات المقالات والتعليقات التي تتناول اهتماماته الراسخة .

**تاريخ الحروب الصليبية**

بالرغم من ارتباط رنسيمان بالتاريخ البيزنطي ارتباطا لم ينفصم يوما وتواصله في الكتابة عنه طوال حياته، وبالرغم من أن مؤلفاته في هذا الحقل قد تواصل طبعها عشرات الطبعات وحصدت الأرباح الطائلة

لدار النشر العريقة (مطبعة جامعة كمبردج)،[٦٧]إلا أن شهرته الحقيقية بقيت مرتبطة بكتابه (تاريخ الحروب الصليبية)،وهو كتابه الوحيد في حقل التاريخ الصليبي، فنادرا ما يذكر هذا المؤرخ إلا ويقفز إلى الأذهان كتابُه هذا، ولا تكاد تُذكر الحروب الصليبية طوال نصف القرن الماضي إلا واحتل رنسيمان موقعا متفردا بين صدارة مؤرخيها، فما هو سبب هذه الشهرة التي أربكت، لا بل أسخطت أحيانا المختصين بالدراسات الصليبية أنفسهم قبل سواهم ؟

للإجابة عن هذا التساؤل لابد لنا من معرفة حقيقة إن البريطانيين لم يعنوا بالحروب الصليبية عناية الفرنسيين وألألمان ولم ينتجوا عنها إلا القليل من الدراسات مقارنة بما أنتجه هؤلاء. ويكفي أن نذكر بان من كتب مدخل (الحروب الصليبية) في الموسوعة البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين كان السير ارنست باركر المختص بالتاريخ الحديث وبالنظرية السياسية، بما يؤشر غياب المعنيين بهذا الحقل حينها.[٦٨]علاوة على إن صاحب أول دراسة رائدة لتاريخ الحروب في القرن العشرين وليم ستيفنسن والمتمثلة بكتابه (الصليبيون في الشرق)المنشور عام١٩٠٧ هجر هذا التخصص دون رجعة،[٦٩] ليبقى الميدان شبه مقفر حتى نشر رنسيمان المجلد الأول من كتابه عام ١٩٥١ .

لقد قوبل كتاب رنسيمان باهتمام بالغ ، وكتبت بشأنه العديد من المراجعات النقدية، بأقلام كبار المختصين في الحروب الصليبية في عصره، ففي بريطانيا تصدى لمناقشة الكتاب إبان صدوره كل من ريموند سميل المختص الأكاديمي الوحيد بالدراسات الصليبية حينها[٧٠]،وجان هسي المختصة بالبيزنطيات وكذلك المستشرق برنارد لويس الذي كان يشغل آنذاك كرسي تاريخ الشرق الأوسط والأدنى في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن، والمستشرق باري من الجمعية الاسيوية الملكية . وفي الولايات المتحدة راجعه اوكست كراي ومارشال بلدوين وهاري هازارد، وهم من بين ابرز من كتب عن الحروب الصليبية في الولايات المتحدة؛ الأول الذي كتب عن الحملة الصليبية الأولى وحقق ترجمة كتاب(تاريخ الأعمال التي تمت ما وراء البحر) لوليم الصوري، والثاني صاحب الأطروحة التي شدد الكثيرون على أهميتها عن ريموند الثالث كونت طرابلس. وبلدوين وهازارد هما من تقاسما تحرير الكتاب الشامل عن تاريخ الحروب الصليبية الذي تولت الإشراف عليه الأكاديمية الأميركية للعصور الوسطى، والذي طبع برعاية جامعة بنسلفانيا أولا ومن بعدها جامعة ويسكنسن، واستغرق نشره أكثر من ثلاثة عقود،في ستة مجلدات ضخمة[٧١]. وقد أمعن في مناقشة طروحات رنسيمان كذلك المؤرخ المصري العالمي عزيز سوريال عطية،الذي تخصص في دراسة المراحل المتأخرة من الحروب الصليبية ،من خلال عمليه المبكرين باللغة الانكليزية (الحملة الصليبية على نيقية) عام ١٩٣٦و(الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى)عام ١٩٣٨. والتحق في أواخر الخمسينات بالهيئة التدريسية في جامعة يوتا في الولايات المتحدة. والمثير إن عطية المصري كان –دون جمع من

المختصين الاميركان بالحروب الصليبية– من تصدى لكتابة المراجعات النقدية لكتاب رنسيمان(وفقا لأجزائه الثلاثة) ضمن الدورية الأهم في التاريخ الوسيط Speculum، والتي تصدر عن الأكاديمية الأميركية للعصور الوسطى المار ذكرها .

ومن غير المختصين استوقف العمل المؤرخ ريتشارد نيوهل من جامعة هارفارد والكاتب والمؤلف الاميركي هارولد لامب صاحب كتاب(شعلة الإسلام) والكاتب والاديب الاميركي كينيث ريكسروث . وفي فرنسا ناقشه مؤرخان بارزان اختصا بدراسة الحروب الصليبية هما جان ريشار صاحب كتاب (مملكة بيت المقدس) وكلود كاهن المستشرق والمؤرخ المعروف الذي بدأ حياته الاكاديمية مختصا بتاريخ الحروب الصليبية في اطروحته الشهيرة (سوريا الشمالية في عصر الحروب الصليبية) والتي نشرت عام ١٩٤٠. وسيتم تناول هذه المناقشات بقدر من التفصيل لأنها تعكس طبيعة تلقي أولئك المختصين للكتاب، ومحاور النقاش الذي أثاره عند نشره للمرة ألأولى ، ثم سننتقل لاحقا إلى رصد تلقي الجيل التالي من مؤرخي الحروب الصليبية للكتاب،وتطور مناقشة مفاهيمه وأحكامه ، لمعرفة المكانة التي يحتلها كتاب رنسيمان ألان، وما الذي تبقى منه بعد توالي العقود وتداعي المختصين.

لقد رحب من تولى مراجعة المجلد الأول للكتاب باقتحام رنسيمان لحقل الحروب الصليبية في بريطانيا، فسجلوا أولا تخلف الدراسات الصليبية في بريطانيا، فذكر سميل بان موضوع الحروب الصليبية قد بقي لقرون حكرا على الفرنسيين والألمان، فهم من نشر النصوص الأولية وهم من كتب الدراسات الدقيقة وهم أيضا من وضع الدراسات العامة.[٧٢] ويلوح، من طرف آخر، المستشرق برنارد لويس معلقا: إن تجربة الوجود الفرنسي على ارض سوريا قد أنتجت كتابا ضخما عن الحروب الصليبية هو كتاب رينيه كروسيه الذي نشر عام ١٩٣٦،بينما لم يثر الانتداب البريطاني على ارض فلسطين الباحثين الانكليز ليقدموا كتابا مماثلا.[٧٣] ويعزز، على الجانب ألآخر من الاطلسي، هارولد لامب هذا القول، مشددا على تخلف البريطانيين والاميركان عن إنتاج أعمال عن الحروب الصليبية تضارع ما أنجزه الفرنسيون وأخرهم كروسيه.[٧٤]وكذلك يسجل عزيز سوريال عطية بان الانكليز قد تخلفوا كثيرا عن غيرهم في حقل الحروب الصليبية، وإن وعي ستيفن رنسيمان عالم البيزنطيات الشهير بذلك دفعه لتكريس نفسه لهذه المهمة الجبارة في سد هذا الفراغ في الأدبيات الانكليزية"[٧٥].

لكن أكان مجرد تأليف كتاب جديد عن الحروب الصليبية هو الذي اكسب كتاب رنسيمان مكانته أم إن للكتاب مزايا أخرى ؟ ومن جانب آخر ما ألذي دفع هؤلاء النقاد، واغلبهم–كما ذكرنا– من كبار المختصين بتاريخ الحروب الصليبية في العالم الغربي، للتنبؤ بأنه سيبقى لأمد طويل قادم ،بوصفه أفضل مسح علمي

للموضوع باللغة الانكليزية من قبل مؤلف فرد،[٧٦]أو التاريخ المعياري للحروب الصليبية.؟[٧٧]وما ألذي دفع المؤرخ الاميركي اوكست كراي ، وهو يراجع الجزء الأول منه للقول:

"نؤكد ديننا العميق للمزايا الرفيعة جدا للانجاز الذي يمثله هذا العمل،وإذا قدر للمجلدات التالية أن تكون بنفس معيار المجلد الأول فالنتيجة لن تكون فقط أفضل نص شامل ينجزه فرد في هذا الميدان ، وإنما سيبقى عملا سامقا بحق وفقا لكل المعايير"[٧٨].

كيف يتـــأتى لهؤلاء أن يطلقوا هذه الأحكام، وبعضهم من وضع اللمسات الأخيرة في الولايات المتحدة لاستكمال مخطط كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) وساهم مساهمة جوهرية في انجازه، وفي نيتهم أن ينسخ كل ما كتب قبله في هذا الحقل . لقد كان رنسيمان أول من لفت الأنظار إلى المقارنة بين عمله والمشروع المرتقب، حيث قال:

" ربما يكون من غير المعقول أن ينافس مؤرخ انجليزي واحد حشدا من ألألات الكاتبة الأميركية ، غير انه ليست ثمة منافسة ؛ مع العلم بأنه ليس في استطاعة مؤرخ واحد أن يباري مجموعة من المختصين، لكنه ربما يستطيع أن ينجح في أن يجعل لكتابه صفة الترابط المتصل ،وهو ما لا يتحقق لكتاب يشترك فيه مؤلفون عديدون". [٧٩]

لكن الأمر لم يكن محصورا فحسب على القول بتفوق كتاب رنسيمان على أسلافه البريطانيين ولا على صموده في وجه الإعصار العلمي القادم من اميركا، وإنما اندفع بعض هؤلاء المختصين إلى المناداة بتفوقه على الألمان والفرنسيين ذوي التراث العريق في الدراسات الصليبية، سواء أكان ذلك بشهادة البريطانيين أو الاميركان، لا بل حتى الفرنسيين أو الألمان أنفسهم. فيرى سميل بأن كروسيه كان واضحا في تحيزه وتعصبه الفرنسي، وان روريخت قد أثقل الكتاب بالتفاصيل الدقيقة المتعبة والمرهقة ، أما كتاب رنسيمان فهو ابسط في تركيبه واصدق وأوضح في نصه.[٨٠] ويقدم كراي شهادة مماثلة في مراجعته للجزء الثاني من الكتاب حينما قال " كتاب رنسيمان أكثر أهمية من عملي روريخت وستيفنسن واقل رومانسية وأكثر موثوقية من كروسيه".[٨١] ويعقب مختص أميركي آخر بالحروب الصليبية هو جيمس بروندیج بعد نحو عقد من الزمن على تأليف كتاب رنسيمان بأن :

" العمل ارفع مستوى بكثير مما قدمه كروسيه ولاشك بأنه أفضل تاريخ للحركة بمجملها كتبه شخص واحد وسيبقى كذلك في المستقبل المنظور " [٨٢].

وبالنسبة للفرنسيين فقد سجل المستشرق والمؤرخ الفرنسي كلود كاهن، وهو يراجع المجلد الثالث، اعترافه بان كتاب رنسيمان ارفع منزلة من كروسيه، و دعا إلى ترجمته إلى الفرنسية .[٨٣] وذيل على ذلك الألمان الذين كانوا أسرع من الفرنسيين كثيرا في الإقرار بقيمة الكتاب والسعي لنقله إلى لغتهم، فقد وثّق المؤرخ

الألماني ادولف فاس بعد مضي اقل من عامين على نشر كتاب رنسيمان، دينه له.[٨٤] فضلا عن ذلك فقد صدرت الترجمة الألمانية للجزئين الأول والثاني عام ١٩٥٨ في مدينة ميونخ[٨٥]، وصدر الجزء الثالث بعد ذلك بعامين في مدينة زيورخ بسويسرا[٨٦]، في حين تأخر صدور النص الفرنسي للكتاب نحو أربعة عقود عن نظيره الألماني.[٨٧]

فما سر ذلك الاستقبال الحافل للكتاب، وما هي المزايا الرفيعة التي حازها رنسيمان وأثارت إعجاب نقاده؟.... لقد توزعت مزايا الكتاب وفقا للنقاد، في الهيكل ومنظور المعالجة والأسلوب وطريقة العرض وتنوع المصادر، علاوة على الأحكام المغايرة التي أصدرها رنسيمان على الحركة الصليبية في أهدافها وسلوكيات الصليبيين وما خلفته من آثار .

فبالنسبة **لهيكل الكتاب** نجد إن رنسيمان قد حذا حذو كروسيه بتقسيم كتابه إلى ثلاثة مجلدات ، قسم كل مجلد إلى عدة كتب ،وبدورها قسمت إلى فصول .

غطى المجلد الأول ثلاثة محاور أساسية : هي تاريخ العلاقة بين أوربا والأراضي المقدسة منذ ظهور الإسلام وحتى قيام الحرب الصليبية الأولى، وأصل فكرة الحروب الصليبية في أوربا، ثم وقائع الحملة الصليبية الأولى حتى تتويج بلدوين الأول ملكا في القدس في عيد الميلاد من عام ١١٠١م .

اما المجلد الثاني فقد كرس، وفقا لرنسيمان نفسه، لإيراد "قصة إمارات الفرنج بالشرق الأدنى منذ أن ولى بلدوين الأول حكم مملكة بيت المقدس إلى أن استردها صلاح الدين".[٨٨]

في حين تناول المجلد الثالث تاريخ الشرق الفرنجي والحروب الصليبية منذ إحياء مملكة الفرنج زمن الحملة الصليبية الثالثة حتى انهيارها بعد أن مضى على إحيائها قرن من الزمن.[٨٩] إذ وجد إن الخاتمة المناسبة للحملات الصليبية إنما تتمثل بفشل مشروع البابا بيوس الثاني للقيام بحملة صليبية جديدة عام ١٤٦٤ ، والذي صاغه بعبارة مؤثرة قال فيها :

" لقد حدث منذ نحو أربعة قرون أن أرسل البابا ايربان الثاني بدعوته للحرب الصليبية الألوف من الرجال ليخاطروا بحياتهم في الحرب المقدسة ، أما ألان فان كل ما استطاع البابا الذي اتخذ الصليب ، أن يحشده لم يتجاوز إلا عددا قليلا من المأجورين، الذين تخلوا عن واجبهم قبل أن تتحرك الحملة ، لقد ماتت الحرب الصليبية." [٩٠]

وقد أشاد جان ريشار، وهو يستكمل مراجعة الجزء الثالث بعد ان سبق له ان راجع الجزء الثاني ، بهيكل الكتاب بقوله "كتب رنسيمان ثلاثة مجلدات جميلة جدا ، تركيب دقيق جدا مسيطر عليه جدا ويتمتع بحيوية فائقة".[٩١] بينما سجل سميل بان الكتاب متوازن في طريقة عرضه فلا تصرفنا التفاصيل المتضمنة فيه عن تتبع هيكله العام.[٩٢]

واثنى عدد من المؤرخين على رنسيمان، وعدوه من بين قلة من المؤرخين ممن بدأ روايته بدخول المسلمين البيت المقدس للمرة الأولى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ليضع الحروب الصليبية في منظور جديد يربطها بالصراع التقليدي بين الشرق والغرب،[٩٣]بينما اشاد عزيز سوريال عطية بالامتداد التاريخي لرواية رنسيمان للحروب الصليبية بعد سقوط عكا ١٢٩١م بقوله :

" إنّ معالجة الحملات الصليبيةِ التي تلت سقوط عكا في ١٢٩١م، على الرغم من ضعف وضآلة ما قدمته من أبعاد صغيرة ونتائج ضعيفة ، يعد خدمةُ غير مشكوك فيها لطلاب تأريخ العصور الوسطى، لقد أضاف رنسيمان مادّة جديدة عن الموضوع ستذكر بالامتنان كمساهمة إلى تطوير الفكرِ التاريخي. فمن بين الأعمال العظيمة الثلاثة عن الحملات الصليبية من قبل رويخرت وكروسيه ورنسيمان ، المؤلف الأخير هو الوحيد الذي كسر بكتابه قيود التقليد الخاطئ وتابع الحملات الصليبية خلال العصور الوسطى المتأخرة".[٩٤]

ولا ريب إن إشادة عطية بهذا الإطار التاريخي للحركة الصليبية مرتبط باهتماماته العلمية آنفة الذكر.

والأمر الثاني الذي ارتبط بالهيكل الذي اختطه رنسيمان لنفسه، ان روايته تركزت في الغالب على النشاط الصليبي الموجه صوب الشرق الإسلامي، والذي كانت غايته الاستيلاء على بيت المقدس. فأثار ذلك نقد البعض لأنه لم يضمن كتابه تفاصيل ما عدّ حملات صليبية، سواء تلك التي وجهت ضد المسلمين في الأندلس وبلاد المغرب أو تلك الموجهة ضد أقوام أوربية وثنية مثل الاستونيين والونديين في البلطيق أو ضد فرق مسيحية رأى فيها الباباوات مروقا عن المسيحية مثل الالبجنسيين في جنوب فرنسا أو الارثذوكس في روسيا وغيرهم او حتى أعداء البابوية في ايطاليا ذاتها.[٩٥]وسنرى كيف سينقسم المختصون بالحروب الصليبية بعد رنسيمان حيال هذه المسالة الى مدرستين تمثل كل منها منظورا مختلفا.

أما الأمر الثالث الذي شخصه النقاد في معالجة كتاب رنسيمان هو تركيزه على الحرب والسياسة وإغفاله المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وسواها. وقد كان رنسيمان قد حذر قراءه في مقدمة الجزء الثاني بأنه يكتب التاريخ على طريقة المؤرخين القدماء الذين ركزوا على الحرب.[٩٦] لكن هذا التحذير لم يقنع نقاد عصره ولا من جاء بعدهم. ولم يشفع له أن أضاف إلى مجلده الثاني فصلا عن (الحياة في الشرق الفرنجي)، والى مجلده الثالث فصلين؛ الأول كرس للتجارة والثاني للعمارة والفنون،علاوة على ملحق بعنوان (الحياة العقلية في الشرق الفرنجي).

ويشير كراي في مراجعته للجزء الثاني قائلا :

" سيعد اغلب دارسي الحروب الصليبية تركيز رنسيمان على الحرب اكبر عيوبه ،فتصريح المؤلف بأنه يفعل ذلك اقتداء بالمؤرخين القدماء غير مقبول ،لان المؤرخين القدماء أنفسهم قد أدركوا أهمية العلاقات

السلمية مثل فوشيه الشارتري في نصه الشهير الذي أورده في حدود عام ١١٢٤ عن التغيرات الاجتماعية،أو وليم الصوري الذي تناول تفسير بعض التطورات الاقتصادية في نقده لسياسة الملك املريك تجاه مصر ،ومناقشته للجوانب الإدارية عند تناوله توجه البطريرك فوشيه إلى روما عام ١١٥٥. كل هذه التَطَوّرات كان لها نتائج مهمة على مملكةِ القدس، وتستحق، كما يبدو، اهتماما أكبر في هذا المجلد".[٩٧]. وينبه كراي إلى المحاور التي كان يجدر برنسيمان معالجتها في كتابه بالقول :

" كان لابد للكتاب ان يتضمّن مناقشة أوسع لظهور وطبيعة التنظيمات العسكرية، وبناء القلاعِ الصليبية، والتغييرات اللاحقة في الخطط المرحلية والبعيدة المدى. بالإضافة إلى ذلك فان الاتصال العسكري والديني والدبلوماسي والتجاري المتواصل بين الشرق والغرب أثناء هذا القرنِ لابد أن يكون قد نجح في تحقيق تبادل واسع عريض، ليس فقط في الحرب والسلع لكن أيضاً في مختلف الجوانب ألاجتماعية والثقّافية والفكرية والفنية ووجهات النظر ... وأكثر القرّاء، كما يعتقد المراجعِ ، كان سيسرهم تبادل مناقشة أكمل لهذه التَطورات بدلاً منْ العناية الفائقة الذي أولاها المؤلف إلى العديد مِنْ المشاجرات السلالية التافهة والمنازعات بين الأحياء المتجاورة، والهجمات البسيطة".[٩٨]

ويعترض عطية ايضا على ما ذكره رنسيمان عن سيره على منحى المؤرخين القدماء والاقتصار على تناول الحرب والسياسة ، ويراه اعترافا مباغتا لاسيما وانه يصدر عن رجل بمنزلة مؤرخ كرنسيمان تمرس في حقل التاريخ البيزنطي، فحتى كتاب الحوليات من القدماء يمكن ان يستقي المرء عنهم صورا حقيقية عن المجتمع والحضارة [٩٩]. وكما هو الحال مع كراي، ينبه عطية إلى المحاور التي كان يمكن لرنسيمان أن يغني قراءه بمعالجتها بقوله :

"إنّ النظام الاقتصادي للصليبيين والجغرافية الصليبية ، وتركيب المدينة الشرقية في الأرضِ المقدّسة، والتحول الدستوري للحكومة إلاقطاعية التي فرضت على الشرق، والهندسة المعمارية العسكرية للقلاع الصليبية، والمجتمع العالمي الذي نشأ في الشرق ومنزلة الكنائسِ الشرقية القديمة، وموقع المسلمين الذين انكفأوا تحت الحكم اللاتينيِ – كل هذه والعديد من المواضيعِ الأخرى ذات الأهمية الرئيسية جزء لا يتجزأ من الكتابة التاريخية الحديثة وكان يجب أنْ تتلقى معالجة منفصلة وفي فصولِ مستقلة.عندئذ فقط ، يمْكِن أَنْ يصبح تأريخ الحملة الصليبية ككل حقيقة حيّة. أما اقتفاء خطى مؤرخي الحوليات من العصور الوسطى فيُقزم التأريخ إلى حكاية مُرهقة ومشوّشة"[١٠٠].

أما هسي فهي وان تقر بان من حق أي مؤرخ أن يختط طريقه الخاص في الكتابة، لكنها تؤكد بان: "من حق القراء أن يقرأوا في تاريخ للحروب الصليبية تفاصيل عن الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدستورية،ولا يعتد بما ضمنه رنسيمان في مجلديه الثاني والثالث عن هذا الموضوع فهو يتسم بالإيجاز

الشديد ،علاوة على إغفاله للحديث عن الكنيسة والاكليروس ، الأمر الذي كنا نفترض انه سيمنحه اهتماما اكبر".[١٠١]

علاوة على ذلك يعترض كلود كاهن وهاري هازارد وعطية على فهم رنسيمان للحرب، فيسجل كاهن بان الحرب هي ليست مجرد حركة الجيش اليومية في ميدان القتال،[١٠٢] ولاهي شرح التحركات العسكرية من خلال المبالغة بتبسيط ردود الفعل الشخصية بين الورع وعكسه كما يقول هازارد،[١٠٣] ولاهي،كما يسجل عطية ، مجرد وصف الحملات وحركتها. [١٠٤]فالحرب،وفقا لكاهن، يجب أن يتم تناولها استنادا إلى ما تتركه من آثار سواء بالنسبة للمملكة اللاتينية أو بالنسبة للمسلمين فيما يخص التوزيع السياسي أو التأثير الاجتماعي أو وسائل ممارسة الحكم أو حتى طرائق القتال[١٠٥].

وإذا كان النقاد قد اعترضوا على تركيز رنسيمان على السياسة والحرب ،فأنهم اجمعوا على الثناء على **أسلوب رنسيمان** وعدوه احد ابرز عوامل نجاح كتابه، فقد استوقفهم أسلوبه اللغوي المشرق والواضح ،وصياغاته الذكية وتعبيراته الممتعة المتهكمة واللاذعة احيانا، فمن بين أكثر من عشرين مراجعة كتبت بحق أجزاء الكتاب الثلاثة، لم يغفل اغلبها الإشارة إلى سلاسة أسلوب رنسيمان وإشراقه وطلاوته، ولطالا قورن بكيبون أو حتى بالمؤرخ الشهير ماكولي.[١٠٦]بل هناك من عد أسلوبه من ارفع مستويات النثر الانكليزي[١٠٧]. ويذكر أكثر من مؤرخ تدقيق رنسيمان البالغ في اختيار مفرداته ، وانه اعتاد طباعة نصوصه بإصبع واحد فقط، ليدقق في اختيار كل كلمة، وانه كان يقرا كل فقرة عندما ينتهي من طباعتها بصوت جهوري للاطمئنان بان إيقاع اللغة متسق وان الجمل تتدفق بسلاسة.[١٠٨]

لكن يبقى الأسلوب اللغوي الأداة التي تناول فيها رنسيمان موضوعه، والأهم الطريقة التي سيعرضه فيها! لقد اختار رنسيمان أن يتبع طريقة **السرد التاريخي القصصي**، وهو الأمر ألذي عُزي إليه إعجاب طيف واسع من القراء بكتاباته، وفي مقدمتها كتابه عن الحروب الصليبية وتصدرها قائمة الكتب الأكثر مبيعاً بين نشريات مطبعة جامعة كمبردج لعقود من الزمان.[١٠٩] وبالمقابل هو أيضا ما أثار في وجهه النقد من قبل عدد من الأكاديميين الذين نظروا إلى الكتابة التاريخية من منظور مختلف.[١١٠]

ومن اللافت للنظر إن رنسيمان كان واعيا بالاتجاهات المختلفة في دراسة التاريخ ، فقد عاصر مدرسة الحوليات الفرنسية، وكانت أعمال براوديل عن البحر المتوسط قريبة جدا من تخصصه ، لكنه لم يفكر –كما يقول برايز – إن باريس وليس كمبردج قد تكون المكان المناسب للتخصص في الدراسات البيزنطية[١١١]. وتبقى عبارته الشهيرة التي لطالما جرى الاستشهاد بها ، ومفادها إن الواجب الأسمى للمؤرخ –حسب قوله " ان يؤلف في سلسلة متعاقبة واحدة كتابا واحدا مترابط الأجزاء عن أهم الأحداث والحركات التي تحكمت في أقدار الإنسان"[١١٢] وتدافع انجيلكي اليونانية الأصل عن الأسلوب السردي الذي تبناه رنسيمان بقولها:

"لم يكن التاريخ السردي مودة العصر بعد الحرب العالمية الثانية، فمدرسة الاقتصاد وانحرافها صوب الاقتصاد الكمي ومدرسة الحوليات والبنيوية ومدرسة المهاجرين كلها كانت مزدهرة ...وان رنسيمان كان مدركا لاتجاهات عصره لكنه بقي مخلصا لنمط التاريخ الذي أمن بكونه الأكثر فاعلية ، لكن التاريخ السردي يستدعي شروطا مسبقة منها المعرفة العميقة بالمصادر وملكة الكتابة القصصية واللغة الرائعة ...ورنسيمان هو من آخر عظماء المدرسة السردية في التاريخ" [١١٣].

وملكة السرد القصصي في معالجة موضوع بالغ التعقيد والتنوع مثل الحروب الصليبية تمثل تحديا بالغ الضخامة لمن يتصدى لهذه المهمة ، فيذكر لويس "إن المهمة التي تتكب لها السيد رنسيمان ليست سهلة فقصته تتنقل عبر القارات والحضارات"[١١٤]. ويعقب مستشرق بريطاني آخر هو باري على قول لويس "لقد عرف رنسيمان كيف يجمع خيوط تلك الروايات المتعارضة برواية سردية واضحة ومتوازنة في قصة مثيرة جمعت بين الشجاعة العالية والخصومات الدنيئة وبين التألق العابر والوهم الأزلي". [١١٥] وبالصورة ذاتها تعقب المختصة بالبيزنطيات هسي قائلة :

"عالج السيد رنسيمان مواده الصعبة المتناقضة في اغلب الأحيان على نحو جدير بالاعجاب دون مبالغة في التبسيط فهو يجيد بسهولة التنقل بين انطاكيا القدس وبين مجالس البابوية والقسطنطينية إلى الامارات الإسلامية ،ووضوح تقديمه وعنفوان أسلوبه الأدبي يسرع بنا الخطى بين مجلداته الثلاثة"[١١٦] ويدعم هذا القول سميل فيسجل :

" تظهر قدرات رنسيمان الأدبية في أثقل ميزان فالخيوط المعقدة للرواية تم تعقبها، وحللت بعناية ودقة العلاقات بين المجاميع المختلفة من الصليبيين وأولئك الذين مروا في أراضيهم".[١١٧] ويسجل أديب وناقد أدبي اميركي هو كور فيدال إعجابه بأسلوب وطريقة رنسيمان في الكتابة التاريخية فيقول:

" يقف السير ستيفن جنبا إلى جنب مع كبار المصممين والخبراء في الشؤون العامة من خلال رؤيته الرزينة، فهو يقص حوادث قصته بصورة جلية، فلطالما ان ما يقوله ليس نصا مقدسا ولا يشعر أن واجبه ان يقوم بمقام الواعظ . فهو يصدر أحكامه ولكن بعد أن يعرض القضية . فهو يحب الحقيقة ولا يثق بالنظرية . ومن المبهج جدا قراءة نصه.[١١٨]

ويمضي فيدال في القول :

" تذكرك قراءة مؤرخ كستيفن رنسيمان بان التاريخ عمل أدبي يشبه تماما الرواية ،فالمؤرخ يجب ان يكون سيدا ليس فقط للطابع العام لرواياته وإنما كذلك لتفاصيلها الدقيقة ،ولابد أن يفهم الشخصية الإنسانية لكي يفهم الفعل الإنساني ،والأهم يجب أن يكون أخلاقيا"[١١٩]

وبطبيعة الحال إن **تنوع الرواية** في كتاب رنسيمان هي إحدى المزايا الأهم في كتابه ، فغالبا ما كانت الحروب الصليبية مغامرة أوربية غربية تكتب استنادا إلى المصادر الغربية ولا تتناول إلا نشاط الغربيين ومنظورهم الخاص في تفسير مجريات هذه الحرب، فجاء رنسيمان بمنظور مختلف عندما سعى لرسم صورة الحروب الصليبية في بيئتها في الشرق الأدنى وأعطى للإطراف الأخرى التي اشتركت في هذا النزاع العالمي ولمصادرها الفسحة للتعبير عن تصوراتها الخاصة، فيشر الكاتب الاميركي ريتشارد نيوهول بان رنسيمان يحقق فهما افضل للعلاقات بين الشرق والغرب، " فهو يعالج الصليبيين كجزء من تاريخ الشرق الادنى...ويضع الحملة الصليبية من منظورها الاسيوي،وهذا يتطلب قصة مفصلة لشؤون الاسر الحاكمة الارمنية والتركية والمصرية ...،مما يظهر بان الصليبيين زجوا أنفسهم في بيئة مضطربة لم يكونوا جزء من سياساتها ".[١٢٠] وبالتأكيد إن تحقيق ذلك لم يكن ميسورا إلا بمستوى رفيع من الألفة والدراية العميقة مع المصادر والبيئات والمفاهيم الشرقية، فإجادة رنسيمان للغات المنطقة والسنوات الطويلة التي قضاها في بلاد اليونان وتركيا ورحلاته المتعددة إلى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والاردن والعراق وتتبعه سيرا على الإقدام أو على ظهور الحيوانات المسالك التي اتخذها الصليبيون في رحلاتهم إلى الشرق هي التي مكنته من ذلك. ويذكر المؤرخ جايلز ، نقلا عن كتاب رنسيمان الأخير (ابجدية المسافر) " لا يمكن فهم مجريات معركة الا إذا تفحص المرء التضاريس الفعلية".[١٢١]

ويدعم كراي ما سبق بنص بالغ الاحاطة ،حيث يقول:

"تجاوز رنسيمان في النظرة الشاملة التي قدمها عند تناوله للمرحلة الصليبية كل أسلافه في هذا الحقل وهذا يتجلى بوضوح في مناقشته لتاريخ الشرق الأدنى. فلم يبزه عليه احد في تقليب هذا الموضع على مختلف أوجهه ، فقد تعامل بعين حاذقة مع تقريبا كل العناصر التي شاركت في الحروب الصليبية وعالج بثقة الشرق اليوناني والعناصر السلافونية والأفرع المختلفة للعرق التركي وجغرافية وسكان الشرق الأدنى بمجمله من ارمن ويهود وأكراد وعرب ومصريين والمذاهب النصرانية و الاسلامية المختلفة . وقلة قليلة ، هذا ان وجد احد ، يمتلك التاهيل من مؤرخي الحروب الصليبية لأداء هذه المهمة، فالسنوات التي قضاها رنسيمان في صوفيا واثينا والقسطنطينية والقاهرة قد يسرت له تحقيق ذلكن ،وإن الإضافة التي قدمها رنسيمان تتمثل بمعرفته الفائقة بالشرق ليس فقط بجغرافيته وإنما بشعوبه ومواقفها الدينية والسياسية ورغبته غير المتوانية في الكشف عن دوافعهم .[١٢٢]

وبالتأكيد إن ذلك لا يمكن تحقيقه دون الرجوع إلى المصادر الشرقية ذاتها واستجلاء تصوراتها ،فقد أغنى رواياته بإجادة لغات شرق أوربا اليونانية والبلغارية والروسية وسواها ، إلى جانب العديد من اللغات الشرقية من بينها العبرية والارمنية والسريانية، وعندما يقف حائل اللغة أمامه–كما هو الحال مع ألعربية– نراه يتتبع

روايات المصادر التاريخية في ترجماتها الأجنبية.[١٢٣] ولأجل ذلك أشاد النقاد بضخامة البيبلوغرافيا التي الحق بها كتابه وتنوعها [١٢٤].

**رنسيمان بين البيزنطيين والصليبيين**

ولعل اهتمام وألفة رنسيمان العالية مع التاريخ والحضارة البيزنطية جعله قادر على نقل الصورة البيزنطية بصورة عدت أهم خصائص كتابه إلى حد دفع احد النقاد لتسمية كتابه تاريخ الشرق اللاتيني من منظور بيزنطي.[١٢٥] وثمة شواهد كثيرة على ذلك من بينها على سبيل المثال في منحه لكتاب الكسياد لانّا كومنين مساحة غير مسبوقة في كتاب عن الحروب الصليبية، لتعرض تصوراتها القاسية أحياناً عن قادة الحملة الصليبية الأولى من الغربيين وتصوير والدها الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنين بصورة فخمة.[١٢٦]وفي هذا الشأن يشير سميل قائلا : المقارنات [التي عقدها رنسيمان] بين اللاتين واليونانيين بالأحرى مالت أيضا في أغلب الأحيان إلى غير مصلحة الغربيين، وبينما صورة اليكسيوس كومنين بارزة الملامح ، هو لا يظهر الصورة الكاملة لبوهيمند، الذي كان رمزا يقف على قدم المساواة معه. ويرى عطية في مراجعته إن رنسيمان قد برع في رسم الخلفية البيزنطية وأحكامه غير قابلة للنقض في هذا الحقل.[١٢٧]

ويضيف مارشال بلدوين موضحا هذا الموقف :

"ربما إن أهم خاصية لكتاب رنسيمان في جانبه التفسيري هو تفهمه للسياسات البيزنطية .و كمتخصص بارز بالدراسات البيزنطية فأنه أعطى بالتأكيد مكانا بارزا للمشكلة البيزنطية التي تتناول العلاقة المسيحية الشرقية والغربية والوضع الدبلوماسي – العسكري الذي خلقته الحروب الصليبية . ومع إن بعض القراء يشعر بان رنسيمان متحيز نوعا ما للبيزنطيين ،فانه يبقى صحيح ايضا ان اغلب مؤرخي الحروب الصليبية من الغربيين لم يوفوا هذه المسألة حقها"[١٢٨]

ويدعم ذلك لويس في قوله : "يظهر رنسيمان متحررا من التحيزات المتوارثة ضد اليونانيين والمسلمين والتي ضللت الكثير من الكتاب الغربيين وهم يكتبون عن الحروب الصليبية، وانه كان أحياناً يشارك البيزنطيين موقفهم غير الودود صوب البرابرة الفرنج الذين غزو أراضيهم .[١٢٩]

وفي هذه المسألة بالذات تأتي قدرات رنسيمان التصويرية حينما يصور الكراهية المتبادلة بين البيزنطيين والصليبيين ،فيقول:

"وما أثار تعصبهم[الصليبيين] وتحديهم للبيزنطيين، ما لقوه من ترحيب بارد من أهل الريف الذين ظنوا إنهم جاءوا لإنقاذهم. وما اشتهرت به القسطنطينية من الاتساع والفخامة والثروة ونشاط سكانها من التجار والصناع،وما يتدثر به نبلاؤها من ثياب متمدنة جميلة ،وما ترتديه كبار العقائل من ثياب فاخرة، وقد تحلين بالزينة، وسار من ورائهن حاشية من الطواشية والجواري ، كل ذلك أثار عندهم الازدراء والاحتقار الذي

امتزج بالنقص بلغ حد الاضطراب، لم يفهموا لغة البلد وعاداتها بل إن صلوات الكنيسة وطقوسها كانت غريبة عليهم. وبادلهم البيزنطيون هذه الكراهية، إذ أن سكان العاصمة (القسطنطينية) اعتبروا هؤلاء اللصوص الأجلاف الغلاظ الذين لا ضابط لهم والذين عسكروا زمنا طويلا في ارباض مدينتهم ،مصدر نكد واضطراب شديد"[١٣٠]. وقد اثار هذا الحديث عن تفوق البيزنطيين حضاريا على الغرب، وهو الأمر الذي دافع عنه رنسيمان عبر مسيرة حياته الطويلة، حنقا شديدا في صفوف الغربيين ،وسنرى كيف تنكب مؤرخو الجيل التالي للرد على أرائه .

ويتعمق موقف رنسيمان حدة من الصليبيين عند تناوله للحملة الصليبية الرابعة التي انحرفت عن مسيرتها واتجهت تحت تأثير الطمع لغزو القسطنطينية، ونتج عنها مذابح شنيعة وعمليات نهب مريعة قام بها حملة الصليب تجاه إخوانهم البيزنطيين ونتج عنها سقوط الإمبراطورية البيزنطية وبقاء عاصمتها القسطنطينة لأكثر من ستين عاما تحت سيطرة الغزاة ،هذه الحادثة التي وصمها رنسيمان بالقول "لم يرتكب في حق الإنسانية من الجرائم ما هو اشد من الحملة الصليبية الرابعة ".[١٣١] وعباراته في وصف تأثيرها جديرة بالاقتباس لأنها تمثل إدانة صريحة وغير مسبوقة للصليبيين، وستثير مناقشات متواصلة فيما بعد اذ يقول :

"في المجال الفسيح لتاريخ العالم تعتبر نتائج الحملة الصليبية الرابعة فاجعة في جملتها ، إذ أن بيزنطة ظلت منذ قيام امبرطوريتها حارسة لأوربا إزاء غير المسيحيين في الشرق والمتبربرين في الشمال ، إذ قاومتهم بجنودها وروضتهم بمدينتها ...غير إن وحدة العالم البيزنطي قد تحطمت بضياع القسطنطينية نتيجة ذلك ،[الحملة الصليبية الرابعة] ولم يعد من المستطاع إصلاحها ،حتى بعد أن تم استرداد العاصمة (القسطنطينية) ... وفي تلك الأثناء انغرست بذور الكراهية بين العالمين المسيحي في الشرق والغرب . فما كان للبابا انوسنت الثالث من آمال رائعة وما أدعاه الصليبيون من مفاخرات خادعة ، بأنهم انهوا الشقاق ووحدوا الكنيستين ، كل ذلك لم يتحقق . بل حدث بدلا من ذلك إن همجيتهم ووحشيتهم خلفت من الذكرى ما لا يغتفر لهم ". [١٣٢]

وقد أيّد مارشال بلدوين رنسيمان في موقفه من الحملة الصليبية الرابعة بقوله:

" ان عبارات رنسيمان وان بدت قاسية بل قاسية جدا، فان هناك الكثير من الانتهازية والحقد في مهاجمة القسطنطينية، ويصعب القول بأنه قد بالغ في الحديث عن نتائج هذه الحملة ليس على الحملات الصليبية وحدها وإنما على الحضارة الغربية بمجملها من خلال ما أحدثته من انشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وكان للحملات الصليبية دور كبير في تعميقه"[١٣٣] .

وموقف رنسيمان من البيزنطيين كان مدخلا للتعبير عن تصوره الجديد للحملات الصليبية والصليبيين ودوافعها. ويمكن تلخيص موقف رنسيمان بحكمه القاسي الذي ختم به كتابه، والذي طالما استشهد به من عرج على تناول كتابه عن الحروب الصليبية ،وهو :

"لم تكن الحروب الصليبية إلا فاصلا محزنا مدمرا ، كلما تطلع المؤرخ إلى الوراء عبر القرون إلى قصة بطولتها ، لابد أن يلقى إن إعجابه قد حجبه الأسى والحزن لما يحمله من شاهد على قيود الطبيعة البشرية. لقد توافرت الشجاعة وتضاءل الشرف، واشتد الإيمان وضعف الفهم والإدراك، فالمثل العليا أفسدتها القسوة والنهم كما إن المغامرة والتحمل دمرهما الاعتقاد الأعمى والضيق بصدقية الذات ، بل إن الحرب المقدسة لم تعد أكثر من فعل متطاول من التعصب باسم الرب ،وهي ليس إلا خطيئة ضد الروح القدس ".(١٣٤)

فعلى قدر تعلق الأمر بمن تولى مراجعة كتابه نجد إن لامب، وهو أول من اصدر مراجعة للكتاب قد أكد على الصورة التي رسمها رنسيمان لجشع الصليبيين وتنافسهم على الاقطاعات سواء فيما بينهم أو مع البيزنطيين، حيث تحولت الحملة الصليبية العظيمة إلى جهود مادية تميزت بتفتيش الزعماء عن الاقطاعات والتنافس مع السلطة البيزنطية والنزاع مع الأرمن من المسيحيين الشرقيين .(١٣٥) وأذا كان كراي قد تقبل موقف رنسيمان المار ذكره حول تبادل الكراهية بين البيزنطيين والصليبيين ،حينما قال : " لقد سجل [رنسيمان] القصة كما وقعت احداثها وتطورت.وغالبا ما اصبحت الناحية المثالية ضحية الطبيعة البشرية البسيطة للرعاع الذين كانوا يتعاملون في الغالب مع مجتمع معقد فوق مستوى إدراكهم"(١٣٦)، فانه يتوقف في مراجعته للمجلد الثالث عن تأييد رنسيمان ويسجل اعتراضا قويا على حكمه القاسي على الحملة الصليبية الرابعة فيقول :

" إن عناية رنسيمان العميقة ومعرفته الطيبة بالشرق الأدنى، التي حسنت من قيمة مجلداته الثلاثة،قد أكسبته بالتأكيد تحيزا لصالح البيزنطيين، الذين كان المصير الذي حل بهم بمثابة أداة يقيس على ضوئها نتائج الحركة الصليبية . ولكن أكان البيزنطيون أبرياء من كل ما أحاق بهم من ظلامات كما أراد لنا أن نصدق؟"(١٣٧)

أما كلود كاهن فيقف إلى جانب رنسيمان بقوله

" إن الحكم النهائي على الصليبيين مثير حقا للمشاعر، صحيح انه يناقض الصورة التقليدية ،إلا انه صادق تماما في وصف شرور الصليبيين وما خلفوه من اثر على العلاقة بين الشرق، حتى المسيحي منه، والغرب".(١٣٨) أما انجيلكي اليونانية فتشد على يد رنسيمان وتقول: "فهم رنسيمان الحملات الصليبية بوصفها حركة عالمية أدت إلى دمار الحضارة في القرون الوسطى، فالحضارة المسيحية الشرقية الراقية كانت هي ابرز ضحاياها .ورنسيمان بين قلة من العلماء الغربيين الذين أدانوا بشكل مطلق الحركة الصليبية"(١٣٩)

ويعلق بلدوين بدوره على ما ذكره رنسيمان قائلا : إذا كان مؤرخي النظم من أمثال ريتشارد و براور قد شددا على الانجازات الايجابية للاستعمار الصليبي لأرض بلاد الشام فان رنسيمان قدم الرأي المعارض ، فأضاف مواداً جديدة في الجدال الأبدي حول الحروب الصليبية.(١٤٠) وبالمقابل يعترض ريتشارد بأنه ليس على رنسيمان أن يبحث عن التسامح وهو يتحدث عن العصور الوسطى ففكرة التسامح " حديثة جدا وموقفه

[رنسيمان] شخصي جداً[١٤١]. وبالتأكيد سيصبح حكم رنسيمان مثار جدل كبير ،وكما قال محرر التايمس في تأبينه له " إن حكمه تعبير عن جلد الذات وسيجهد من جاء بعده من المؤرخين البريطانيين من اجل نقضه."[١٤٢]وهذا ماسنعرض له الآن .

ويمكن أن نضع أراء رنسيمان النقدية القاسية الصليبيين ضمن سياق العصر الذي كتبت فيه، حيث تزامنت مع انحسار موجة الاستعمار بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتطلع الشعوب المستعبدة إلى الحرية، وإعادة النظر في الماضي بعين الحاضر، وإدانة الحملات الصليبية بوصفها الأنموذج الأوربي المبكر للاحتلال . وفي هذا الشأن يقول الكاتب الاميركي ريكسروث في معرض مقارنته بين كتابي كروسيه ورنسيمان: " إن كتاب الأول كان منشورا استعماريا كتب لتبرير احتلال فرنسا لسوريا ولبنان، وان قراءة رنسيمان لهذا الكتاب لربما كانت محفزا لكتابة كتابه ، والسيد رنسيمان بوصفه مواطنا في إمبراطورية خرجت طواعية من المشرق ولديها علاقات مديدة مع القوى الإسلامية من الصعوبة أن يكون مواليا للصليبيين، ومرة أخرى، ولكونه انكليزيا، فانه سيكون معاديا للبابوية وان بصورة معتدلة . وكان البيزنطيون ، من بين كل الأطراف التي اشتركت في هذه الدراما الطويلة والطائشة ، هم الأمة التي تعاطف معها أكثر من الجميع ومن الإفراد الإمبراطور اليكسيوس كومنين". [١٤٣]

بينما يرى كونستابل إن الكتاب قد جاء في وقت تصاعد فيه الاهتمام بالعلاقات الشرقية الغربية عموماً، وبالحملات الصليبية خصوصا، وفي زمن كان يشكك فيه العديد من الغربيين في شرعية السياسات الإمبريالية التي ألصقت بها الحملات الصليبيةِ [١٤٤].

وتدعم المؤرخة اليونانية انجيليكي ولا شك هذا الرأي بقولها :

" تميز كتاب رنسيمان بأنه للمرة الأولى يتم تقدّيم الحملات الصليبية كمجابهة عالمية تاريخية وإنشباك ثلاثة عوالم ، هي بيزنطة، إلاسلام وأوربا الغربية. فهم رنسيمان أهمية الحملات الصليبيةِ كحركة دولية أدّتْ إلى دمار حضارة القرون الوسطى ، حضارة مسيحيي الشرق التي، كما يلاحظ، كانت ضحاياها الرئيسيين. هو بين قلة من علماء غرب اوربا،ممن ادانوا وبشكل واضح ومطلق الحملات الصليبيةَ بوصفها ــ"لا شيء أكثر مِنْ فعل طويل مِنْ التعصّب باسم الله، الذي هو ذنب ضدّ روح القدس "[١٤٥].

**رنسيمان والمدرسة البريطانية للحروب الصليبية**

كان كتاب رنسيمان وما أثاره من جدل محفزا قويا لكي يلتفت البريطانيون للاهتمام في تاريخ الحروب الصليبية بعد زمن طويل من الاهمال ، فبدأت تتبلور عبر العقود التالية ما يمكن تسميتها (مدرسة تاريخية بريطانية في الحروب الصليبية) كان رائدها المؤرخ جواناثان رايلي–سميث الذي اتسم بغزارة كتاباته وبالسعي لتكوين جيل من الباحثين من طلبته للتخصص في هذا الحقل.[١٤٦] والمثير إن هذه المدرسة قد جعلت همها أن

تخرج من القالب الذي وضعه رنسيمان للحروب الصليبية، سواء في الهيكل أو طريقة المعالجة أو حتى في المواقف الجريئة التي نادى بها. وإذا كان رايلي سميث قد اعترف بأنه استمد إلهامه عن الحروب الصليبية في سني حياته الأولى من كتاب رنسيمان، فانه انطلق في كتاباته المختلفة من منظور مخالف بصورة تكاد تكون كلية لما قدمه رنسيمان .[١٤٧] وتناول أفكاره يحقق الهدف الأخير لهذا البحث والمتمثل بالموقف الذي يشغله رنسيمان ألان في الكتابة التاريخية الصليبية ، بعد توالي السنين والعقود وتدافع الدراسات وبزوغ الأفكار وأفول غيرها ، ويمكن تلخيص اعتراضات سميث على رنسيمان وفقا للاتي :

**الهيكل** : يرى سميث بأنه يجب التخلي عن الإطار التقليدي للحروب الصليبية في كونها الحملات التي دعت اليها البابوية وتوجهت صوب الأراضي المقدسة، فثمة ساحات أخرى نادت البابوية إلي شن الحملات ضدها ومنحت الغفران لمن يشترك بها وحمل المشتركون الصليب واقسموا –كما هو الحال في الحملات إلى الشرق – على الدفاع عن المسيحية، كما هو الحال في اسبانيا أو ضد العثمانيين أو في البلطيق أو حتى تجاه المسيحيين المنشقين مثل الالبجنسيين في جنوب فرنسا أو أعداء البابوية أيا كانوا. وأطلق رايلي– سميث على أصحاب الاتجاه الجديد الذي يقوده هو اسم( التعدديون )،في مقابل (التقليديون) إي من وصفهم بأصحاب التصور الضيق للحروب الصليبية.[١٤٨]ويعد كتابه الحروب الصليبية الذي صدر عام ١٩٧٧ ممثلا لهذا الاتجاه. ويرى ان تلميذه نورمان هاوسلي قد أصبح اقوى المدافعين عن هذا الاتجاه ولاسيما من خلال دراساته عن الحروب البابوية في ايطاليا وكيف تم دمجها ضمن الحروب الصليبية.[١٤٩]

وانتقد رايلي– سميث كذلك قلة اهتمام رنسيمان بالحملات الصليبية بعد عام ١٢٩١ (أي تحرير المسلمين لعكا أخر مدينة كانت بأيدي الصليبيين) ، حيث لم يكرس لهذه المرحلة إلا أربعين صفحة ،بينما يدعم رايلي – سميث الرأي القائل بامتداد الحروب الصليبية حتى القرون المتاخرة ويجعل من اخذ نابليون لمالطا من فرسان القديس يوحنا عام ١٧٩٨ بمثابة سقوط آخر المعاقل الصليبية[١٥٠].

**التركيز على الحرب والسياسة** : أيد سميث الانتقادات السابقة التي وجهت لرنسيمان في التركيز على الحروب والسياسة، لكنه أضاف بان الحرب ذاتها لم تعالج لدى رنسيمان كما ينبغي، ويرى ان معالجات مشرفه سميل ولاسيما كتابه (الحرب الصليبية ) قد أعطى منظورا مختلفا لدراسة الحرب،,وهذا ما يشرحه تلميذ رايلي –سميث المؤرخ ادبيوري بقوله " كانت دراسة الحرب قبل سميل تركز على العمارة العسكرية والتكتيكات في ساحة الحرب، فحول سميل الانتباه صوب تكوين الجيوش، والعلاقة التكاملية بين المشاة والخيالة وعلى الغارات وغيرها من إشكال الصدامات العسكرية ،والى دور القلاع بوصفها مراكز للسلطة علاوة على كونها نقاط عسكرية"[١٥١]. ومن جانب اخر فان احد الاعتراضات الرئيسة على تناول رنسيمان للحرب هو انه لم يسع لإعطاء صورة وافية عن الطوائف العسكرية التي كانت احد الظواهر أهمية في تاريخ الحروب الصليبية ،

الأمر الذي عني به البريطانيون بعده عناية كبيرة ،حيث كان أول من كتب دراسة فيه هو رايلي –سميث نفسه من خلال اطروحته التي اشرف عليها سميل عام ١٩٦٢ عن فرسان القديس يوحنا في القدس وقبرص وتبعه الكثير من طلابه، وبين ابرز الدراسات التي تناولت هذه الطوائف مالكولم باربر في دراساته المتعددة عن فرسان المعبد والان فوراي في كتابيه الطوائف العسكرية من القرن الثاني عشر إلى مقتبل القرن الرابع عشر والطوائف العسكرة والحروب الصليبية وكلا الكتابين صدرا في التسعينات. (١٥٢)

وقد تواصل انتقاد إغفال رنسيمان للتاريخ والاقتصادي والاجتماعي والفكري والإداري للحروب الصليبية، وكان بين من سعى لسد هذه الثغرة من غير البريطانيين عزيز سوريال عطية في كتابه (الحروب الصليبية :تجارة وثقافة)(١٥٣)وريتشارد ويوشع براور الذين أمعنا في دراسة نظم مملكة بيت المقدس الصليبية بما أعطى صورة مغايرة لهذه المملكة، حيث تم التخلي عن الصورة التقليدية لمملكة إقطاعية متحجرة لتكتسب شكلا أكثر طبيعية تخضع للتطورات السياسية والدستورية بما لا يختلف عن أي مكان آخر.(١٥٤) ويرى كونستابل إن هذه الدراسات قد حولت دراسة الحروب الصليبية من دراسة حركة إلى دراسة للمؤسسات الصليبية في الشرق(١٥٥)

**المنظور البيزنطي** أما أكثر القضايا الجدلية التي أثارت المؤرخين المعاصرين، كما هو الحال مع مؤرخي الخمسينات فتتمثل بتفهمه لوجهة النظر البيزنطية ، وبالتالي حكمه القاسي على الصليبيين ،ومرة أخرى يضطلع رايلي –سميث بمهمة الرد عليه فيبذل غاية جهده لتفنيد طرح رنسيمان بشأن التباين الحضاري بين بيزنطة بوصفها مركز الحضارة الإنسانية في العصور الوسطى وبين الصليبيين الهمج والبرابرة الذين بلغ حقدهم وشعورهم بالنقص غايته في الحملة الصليبية الرابعة، فيشير سميث الى ذلك في مواضع متعددة ننتخب منها ثلاثة نصوص : كتب الأول عام ١٩٨٠ عندما راجع طبعة جديدة لكتاب رنسيمان، والثاني كتابه الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحرب الصليبية والثالث مقدمته لـــ(تاريخ اوكسفورد للحروب الصليبية) الذي تولى تحريره وصدر عام١٩٩٩وعنوانها (الحروب الصليبية والمؤرخون)، ففي النص الأول يجادل رايلي –سميث رنسيمان في مسألتين:الأولى طبيعة وجهات النظر المتبادلة بين الصليبيين والبيزنطيين، والثانية أصل الفكرة الصليبية ، فبالنسبة للمسألة الأولى يرى بان انتشار كتاب رنسيمان على مستوى العالم رسخ قناعة الناس بما قال ولم يعد ثمة حاجة للبرهنة على ما رآه عن الاحتقار المتبادل بين الصليبيين والبيزنطيين نتيجة التباين الحضاري ؛ احتقار البيزنطيين المتحضرين للصليبيين المتبربرين، مقابل الاحتقار الفرنجي الناجم عن الشعور بالنقص.

فيرى رايلي –سميث إن واجبه هو إبطال هذا التصور من خلال رفضه الحديث عن شعور بالنقص لدى الغربيين تجاه البيزنطيين ،لان الاختلافات الحضارية –برأيه –بين الطرفين لم تكن كبيرة كما يشاع، وعندما يتجه المرء إلى المصادر الغربية لا يجد إشارة واحدة تعكس هذا الشعور . ولا يرى رايلي –سميث ما رآه

رنسيمان من حقد وطمع في نفوس الغربيين تجاه البيزنطيين، وإنما كانوا ينظرون إليهم بوصفهم أخوة آذاهم المسلمون جداً. وبرأيه إن الحملة الصليبية كانت عبارة عن فعل للحب الأخوي( Fraternal (Love لمساعدتهم.[١٥٦] ولا يغفل رايلي –سميث الرجوع إلى هذه المسالة في كتابه المشار اليه اعلاه ، حيث يعاود ألقول:

"في الحقيقة ليس هناك أي حقد أو حتى حسد تجاه الشعب اليوناني ، على الرغم من وجود فكرة عدم مقدرتهم العسكرية وان الحكومة البيزنطية وموظفيها كانوا ظلمة وموصمين بالخيانة ، وورد وصف المسيحيين الشرقيين كأخوة في العقيدة وإنهم عانوا من الوثنيين وإنهم بحاجة إلى المساعدة والثأر لهم .ولذلك حرص الصليبيون على تصويرهم على إنهم يحاربون من اجلهم ،وإنهم لم تمتد أيديهم على أمتعة اليونانيين".[١٥٧]

أما فيما يتعلق بأصل الحركة الصليبية والدوافع التي حركت الصليبيين، فيرى رايلي – سميث واجبه هاهنا أيضاً أن ينفي منظور رنسيمان الذي جعل الشرق المحور الأساس في حديثه عن أصول الحركة الصليبية، عندما ركز على فكرة الحج إلى القدس، والى الصراع بين الشرق والغرب، والى فكرة الانشقاق بين الكنيستين الشرقية الغربية، اذ يدعو رايلي –سميث في نصه الأول الذي يعود إلى مقتبل الثمانينات المؤرخين إلى إعادة النظر في هذه المسألة والاتجاه من جديد صوب الغرب في تفسيرها، من اجل التشديد على الدوافع الروحية الكامنة وراءها، فالحركة الصليبية هي حركة عبادية شعبية صادقة نبعت من فكرة الإصلاح التي عاشها المجتمع الأوربي في القرن الحادي عشر.[١٥٨] وكان هو نفسه من مقدمة الملبين لهذه الدعوة في كتابه الذي سيصدره بعد ذلك بنحو عقد من الزمن بعنوان (الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية)، وفيه حاول أن يدافع عن الطابع والدافع الديني للتحرك صوب الأراضي المقدسة سواء في فكر البابا ايربان الثاني أو في فكر وسلوك القادة والفرسان والعامة الذين انخرطوا في هذه الحملة .

وقد قسم الكتاب إلى ستة فصول تمحورت كلها حول هذا الهدف، إذ تناول في الفصل الأول جهود البابا ايربان الثاني على غرس فكرة الغفران في نفوس العلمانيين من اجل توجيههم لخدمة الكنيسة بينما أعطى للفصل الثاني عنوان (استجابة عامة الناس) ليبين إن الاستجابة المذهلة للناس لدعوة ايربان مبعثها الإيمان والتقوى وليس الطمع أو البحث عن القطاعات أو تحت الضغط الاقتصادي. ويتجلى موقف رايلي –سميث بأوضح صوره في الفصول الثالث والرابع والخامس التي عنونت بـــ (الأحوال إبان الزحف الصليبي) و(أفكار الصليبيين) و(الحملة الصليبية لسنة ١٠١١)، حيث يدافع بكل وسيلة ممكنة عن فكرة تصوير الحملة الصليبية الأولى بوصفها تجسيد للقيم الروحية وتعبير عن عمق الدوافع الروحية ،من خلال حديثه عن الدور الفاعل للرؤى الدينية للسيد المسيح (عليه السلام) وللقديسين في كونها تعبير عن تقوى الصليبيين، وان نجاح الحملة

الصليبية على الرغم من المصاعب الهائلة التي واجهتها عمّقَ من إيمان المشاركين فيها بأنهم جنود العناية الإلهية التي تحرسهم وتؤكد صدق تقواهم .

ويمكن اقتطاف احد نصوص كتابه الذي يعبر بوضوح عن هذه الفكرة حيث يقول :

"وهكذا تطورت العناصر المنفصلة التي تضمنتها دعوة ايربان للحرب الصليبية، وانصهرت في بوتقة واحدة ، وصارت مجموعة من الأفكار الصليبية، وعندما أصبح الصليبيون مدركين لعظمة انجازهم، اعترفوا بان التفسير الوحيد لنجاحهم، هو وجود قوة مقدسة تدخلت ماديا لمساعدتهم . وكان ظهور العلامات في السماء واكتشاف الآثار المقدسة ،وظهور أرواح الموتى ...أدلة على وجود هذه القوة المقدسة ...وفي الحقيقة كانت حربا مقدسة خاضها جند المسيح من اجل تنفيذ إرادة الله ... وبالطبع هذا يكفي لان يجعل الحرب الصليبية عملا له ما يبرره من الناحية الأخلاقية ولاسيما إن الصليبيين كانوا يقدمون الدليل بأنفسهم على محبتهم لله وطاعتهم لأوامره ،كما عبروا عن محبتهم لإخوانهم المسيحيين "[١٥٩] . ويمضي رايلي –سميث في الحديث عن الإخلاص الديني للصليبيين وتصوير حركتهم بمنظار التقوى والورع الديني ، وبالتاكيد إن رنسيمان ونصه الشهير في إدانة الصليبين كان أهم ما يشغل ذهنه،لذا ضمّن هذا النص في بحثه عن (الحروب الصليبية المؤرخون) ،ورد عليه قائلا:

"لقد أغشيت أبصار المؤرخين عن رؤية الحقائق والأدلة نتيجة شعورهم بالاشمئزاز من العنف الأيدلوجي وعجزهم عن إدراك انه يمكن ان يكون في الواقع مقبولا . لقد نسي هؤلاء، وكل شخص آخر ، كيف حظيت الفكرة المسيحية حول العنف الايجابي بالاحترام على المستوى الفكري. ولا يبدو إن ثمة من كان مهيئا لتقبل عملية إحيائها في الستينات في حركات التحرر المسيحية في اميركا اللاتينية، حيث ان بعض هذه الحركات التي كان لها أجنحة مسلحة بررت اللجوء إلى العنف بوصفه عملا من أعمال الخير يأتي منسجما مع رسالة المسيح للبشرية وبوصفه حلا أخلاقيا . لقد اكتشف مؤرخو الحروب الصليبية فجأة بان هناك أناس بين المعاصرين ممن اتسموا بالصدق الإخلاص يحملون ايدلوجيات تشابه اراء الدعاة الذين يدرسونهم في العصور الوسطى. وتفتحت أعينهم بصورة أوضح على مسالة تهافت الأدلة التي استند إليها القائلون بالدوافع المادية"[١٦٠].

ويوجز رايلي سميث التطور الذي طرأ على تناول الحروب الصليبية منذ أن نشر رنسيمان كتابه بالقول :

"أيا كان ما يجري تحت السطح قبل اربعين عاما، فان النظرة المقبولة بصورة عامة لتاريخ الحملات الصليبية هو ما كان معنيا بصورة خاصة بالحملات الواسعة النطاق التي توجهت صوب الشرق وبالمستوطنات اللاتينية في فلسطين وسوريا. ويتلاشى اهتمام اغلب المؤرخين بها بعد عام ١٢٩١،حيث جرى الاعتقاد بان الفكرة الصليبية قد مضت إلى طريق الاضمحلال الواضح . ومنذ ذلك التاريخ توسع موضوع الحملات

الصليبية في مديين زماني ومكاني ، لتتغير طبيعتها إلى حركة دامت أكثر من سبعة قرون، في مسارح مختلفة من الحروب . وقد صورت غالبا ذات دوافع اقتصادية واستعمارية وعسكرية ، أما الآن فهي حركة دينية ،قانونية واجتماعية، وهناك تشديد على تناول أصولها والجهد الذي بذل فيها والاندفاع صوبها". [١٦١]

لكن رايلي–سميث وطلابه لم يكونوا هم وحدهم أصحاب الميدان في مناقشة رنسيمان ،وعلى الرغم من الزخم الكبير في نتاجهم ودفاعهم المتواصل عن أفكارهم ، فقد بقيت الصورة التي رسمها رنسيمان للصليبيين تجد لها من يتحمس لها. وتكفي الإشارة إلى ما كتبه احد كبار المؤرخين البريطانيين المعاصرين ،ألا وهو جيفري براكلو الذي كتب عام ١٩٧٠ مراجعة مطولة لعدد من الكتب التي تناولت الحروب الصليبية في الدورية الأميركية المختصة بنقد الكتب (New York Review of Books) تحت عنوان لافت للنظر هو ( تلك مشيئة الربDeus De Volt ) معيدا إلى الأذهان الصيحة التي أطلقها المتجمهورن حول ايربان الثاني في كليرمونت ليعلنوا قيام الحروب الصليبية ،ومما قاله :

"نحن معنيون بالكشف عن الجذور النفسية لأول صور ألعدوان الاستعماري الغربي، لندرسه ونرى أي ضوء سيلقي على الدوافع اللاحقة للاستعمار الغربي النهبي، من غزو المكسيك وبيرو هجمات قوات العاصفة لهتلر، على الأقل لنكتشف كيف اضمحلت رسالة المسيحية المنادية بالسلام والنية الصالحة واعيدت صياغتها لتصبح أكثر من اي دين آخر دينا للسيف ... فنحن لم نعد ننظر الى الحروب الصليبية بوصفها حركة للدفاع عن المسيحية الغربية، ونحن لم نعد نرى الدويلات اللاتينية بؤر للحضارة في عالم من الكفرة ، وإنما مراكز لم يهدأ لها أوار في استغلالها الاستعماري".[١٦٢] وتضع انجيلكي يدها

على رصد وقع كلمات رنسيمان في إدانة الصليبيين فتقول :

"لقد أثارتني رؤية هذه الكلمات في النعي الذي نشر بالتايمسِ ، فهي تعيد إلى الذاكرة قصة الحملات الصليبية بوصفها نوع من جلد الغرب لذاته ، مما يؤكد بان حكم رنسيمان هذا ما يزال يخلق الإزعاج للضمير الغربي".([١٦٣])

وختاما ،يمكن القول بأن كتاب تاريخ الحروب الصليبية كان بالفعل معلما مهما من معالم الكتابة التاريخية الغربية عن الحروب الصليبية في القرن العشرين، ومما اكسبه مكانته عوامل عدة من بينها أسلوبه اللغوي المشرق وإجادة مؤلفه في استخدام الأسلوب السردي بطريقة أمتعت قراءه ويسرت لهم الدخول في عالم الحروب الصليبية بسهولة ويسر ، كما أثار المختصين المدى البالغ الاتساع لمصادره والشواهد المتنوعة التي شيد من خلالها روايته. إلا أن هذا التنوع قد أثار بالمقابل نقدا اختلفت درجة قسوته، حيث اتهم رنسيمان بالتحيز للبيزنطيين والتوافر للدفاع عنهم في وجه الاعتداءات الصليبية والتي بلغت ذروتها بالحملة الصليبية الرابعة، التي كانت برأيه أعظم جريمة في تاريخ الإنسانية .ارتكبتها آخر موجات البربرية الغربية. فقضى

بذلك رنسيمان على الصورة الرومانتيكية لفرسان الصليب ليصبحوا اناس ديدنهم الجشع والنهب والسعي وراء الاقطاعات وارتكاب المجازر التي وصمها بأنها جريمة بحق الروح القدس .

لقد كانت كتابات رنسيمان شهادة دفاع عن بيزنطة وإدانة صارخة للعدوان الصليبي عليها، ومما عزز ايضا من اهميتها انها جاءت متزامنة مع روح التحرر ونبذ الاستعمار التي رافقت نهاية الحرب العالمية الثانية، فلعل رنسيمان قد استشرف روح العصر القادم وقدم له الاسهام الذي ينسجم تماما مع تطلعات عصره . وبالمقابل هاقد عادت الدراسات لتمجد الحروب الصليبية وتلتمس للمشاركين فيها ادوارا روحية ملهمة ،وتعود مرة اخرى الى الضحية فتلقي عليه اللوم ....!! فهلا وجدنا من يقف من بني جلدتنا ليرفع صوتا كصوت رنسيمان ويدين العدوان الصليبي القديم كما ويدين العدوان الصليبي الجديد والمتجدد؟؟؟؟

## الهوامش

[1]Anon."The Obituary of Sir Steven Runciman" The Times , 2 November ,2000. http://homepage.mac.com/paulstephenson/madison/byzantium/notes/runcimanobit.html
[2]Anon. "Sir Steven Runciman "The Daily Telegraph,2November ,2000. http://www.telegraph.co.uk/news/obituaries/1372747/Sir-Steven-Runciman.html
[3]Ibid.
[4]Anthony Pryer , "James Cochran Stevenson Runciman(1903-2000)",in Elizabeth Jeffreys(ed.)Byzantine Style, Religion and Civilization ;In Honor of Sir Steven Runciman ,(Cambridge University Press ,2006) ,p. XXXIX.
[5]Ibid., p. XL
[6]Ibid., p. XL
[7]Nigel Clive, "Obituary : Sir Steven Runciman " The Guardian ,3 November 2000. http://www.guardian.co.uk/news/2000/nov/03/guardianobituaries.books
[8] Anon."The Obituary of Sir Steven Runciman" The Times.
[9] Ibid.
[10] http://en.wikipedia.org/wiki/Bloomsbury_Group.
[11] Anon. "The Obituary of Sir Steven Runciman" The Times.
[12]Anthony Bryer," James Cochran Stevenson…" ,p. XL .

[١٣]كان رنسيمان من بين من استوقفه موقف كيبون ،فكتب في شأن ذلك دراسة مستفيضة ،ناقش فيها أسباب هذا الموقف ومظاهره
Steven Runciman," Steven Runciman ,"Gibbon and Byzantium "Daedalus ,1976 ,Vol.105 ,pp.103-110
[14] Angiliki Laiou, "Sir Steven Runciman :"A Man who Never Grow Tired ", In Haris A. Kalligas(ed.), New Griffon (Athens . A Gennadius Library Publication,2002).
[15] Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of The of the Roman Empire , New York: Fred de Fau &Co,1906) ,Vol.6,p.169.
[16] Speros Vryonis, Jr. , "Sir Steven Runciman and the World of Byzantium " . http://www.greekworks.com/content/index.php/weblog/print/sir steven runciman and the world of byzantium/
[17] William Miller ," John Bangell Bury " ,EHR, Vol. 43, No. 169 (Jan., 1928), pp. 66-72.
[18] Anon.,"The Obituary of Sir Steven Runciman" The Times .
[19] Anon.The Last Interview with the Great Byzantologist Sir Steven Runciman ,The Magazine of Pemptousia http://www.impantokratoros.gr/B8BE43F5.en.aspx.
[20] Anon. "Sir Steven Runciman "The Daily Telegraph.
[21] Anon.,The last Interview With Sir Steven Runciman.
[22] Ibid. ,p 1 .
[23] Steve Runciman .The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign, (Cambridge , Cambridge University Press,1995) ,p.6.
[24] Sir Steven Runciman , The Alphabet Traveler : Partial Memories ,(London , Thames & Hudson,1991).
وقد اختار رنسيمان أن يعمل مسرد هجائي للتعريف بالأماكن التي زارها والحوادث المرتبطة بها خلال رحلاته المتواصلة والطويلة
[25] Anon. "Sir Steven Runciman "The Daily Telegraph.

[26] Anthony Bryer," Obituary :The Hon. Sir Steven Runciman C. H., Litt.D., LL.D., F.B.A. (1903-2000) ".Anatolian Studies , Vol. 50, (2000), pp. v-vi .

[27] Georgina Buckler ,"Review of Steven Runciman ,The Emperor Romanus", The Classical Review, Vol. 43, No. 5 (Nov., 1929), p. 186.
[28] Miller , " J.B. Bury" ,p.70-72 .
كان بيوري قد كتب عدة مؤلفات استعرض فيه التاريخ البيزنطي وتوقف عند القرن التاسع الميلادي في سلسلة من الكتب من بينها كتابه تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية
[29] Bryer, "James Cochran Stevenson Runciman(1903-2000)"p. XLII .
[30] Buckler ,"Review…" ,p. ; A. E. R. Boak ," Review of Steven Runciman, The Emperor Romanus" . The Classical Journal, Vol. 25, No. 5 (Feb., 1930), pp. 399.
[31] Sir Steven Runciman , The First Bulgarian Empire, Cambridge , Cambridge University Press,1930).
[32] Sir Steven Runciman , The Byzantine Civilization ,(Cambridge , Cambridge University Press ,1933).
[33] Vryonis, Jr. , "Sir Steven Runciman…" p.1.
[34] Bryer, "James Cochran Stevenson Runciman…", p. XXXIX .
[35] Donald M. Nicol, " Sir Steven Runciman :A few Words of Eulogy" ,In Haris A. Kalligas (ed.) New Griffon,(Athens ,A Gennadius Library Publication,2002)
[36] Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman …"p.XLII.
[37]Bryer, "Obituary :The Hon. Sir Steven Runciman…",p. V.
[38] Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman… "p. XL.
كان ذلك في أمسية الاحتفال بنيل رنسيمان عضوية كلية ترنتي في عام ١٩٢٧ حيث خلف تريفليان بيوري في كرسي الأستاذية أثر وفاة الأخير
[39] Bryer, 'Obituary: The Hon. Sir Steven Runciman…" p.V.
[40] Ibid., p.VI .
[41] Philip Mansel,"Sir Steven Runciman : Obituary "The Independent, Nov 2, 2000.
http://homepage.mac.com/paulstephenson/madison/byzantium/notes/runcimanobit.html
[42] Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman".p.XLI
[43] Bryer, "Obituary :The Hon. Sir Steven Runciman…",p. V.
[44] Constable ," Steven Runciman…" ,p.97.
[45]Clive, "Obituary : Sir Steven Runciman " The Guardian.
[46] Anthony Bryer ," Steven Runciman Proem" New Griffon, : In Haris A. Kalligas (ed.)( Athens, Gennadius Library, 2002).
[47] Ibid.
[48] Laiou," Steven Runciman…" p.2.
[49] Bryer, "Obituary :The Hon. Sir Steven Runciman…",p. VI .
[50] James Owen, "A meeting With Sir Steven Runciman ",The Spectator ,August 15,1998
[51] Giles Constable ,"Sir Steven Runciman 7 July 1903-2 November 2000",Proceeding of the American Philosophical Society ,Vol. 147, No.1 ( March 2003),pp.99- 100.; Anon. "Sir Steven Runciman "The Daily Telegraph.
[52] Liou ,'Steven Runciman ",p.3
[53] Mansel ,"Sir Steven Runciman : Obituary" .

٥٤ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ،المؤرخ الأستاذ الدكتور صالح احمد العلي ( بيروت،مركز دراسات العربية ،٢٠١١) ص٦٢

[55]Constable," Steven Runciman…" ,p.99.

[56] Ibid., p.99.

[57].Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman ",p14.

[58] David Abulafia, "Sir Steven Runciman *(1903-2000):* A Memoir ",Mediterranean Studies 9 (2000),p.1.

[59] Ibid.,p.1.

[60] Steven Runciman , The Eastern Schism ,(Cambridge ,Cambridge university Press,1955).

[61] Steven Rnciman ,The Sicilian Vespers, ,(Cambridge ,Cambridge university Press,1958).

62 Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman ",p14.

63 Laiou , "Steven Runciman…",p.3

64 Anon."The Last Interview with the Great Byzantologist Sir Steven Runciman" .

65 Anon. "Sir Steven Runciman "The Daily Telegraph.

66 Elizabeth Jeffreys ,Byzantine Style ,Religion and Civilazation ;In Honor of Sir Steven Runciman (Cambridge ,Cambridge University Press ,2006),pXX-XXVIII .

حيث تشتمل تلك الصفحات على فهرس كامل بمؤلفات رنسيمان

[67] Anthony Bryer, "Sir Steven Runciman :The Spider ,the Owl and the Historian", History Today ,May 2001.

[68] Peter W. Edbury , British Historiography on the Crusades and Military Orders : From Barker and Smail to the Contemporary Historians, Cardiff ,Cardiff Historical Papers ,2007) ,p. 1 .

[69] Ibid., p.1; W.B. Stevenson, The Crusaders in The East ,(Edinburgh , Edinburgh University Press,1907), p. IV.

يسجل وليم ستيفنسن دينه للمستشرق وليم ميور الذي وجهه للكتابة في تاريخ الحروب الصليبية من منظور الشرق المسلم ،وقد تخصص ستيفنسن في التاريخ الإسلامي وتولى التدريس في جامعة ادنبرة ،ولم يذكر له من نشريات عن الحروب الصليبية خلا كتابه (الصليبيون في الشرق).

،نجيب العقيقي ، المستشرقون،( القاهرة ،دار المعارف ،٢٠٠٦) ،ط٥ ،ج٣ ، ص

.

[70] Edbury ,British Historiography…,p.1 .

كان سميل قد نال درجة الدكتوراه في التاريخ الصليبي من جامعة كمبردج برسالة بعنوان "الأساليب العسكرية التي استخدمتها الدويلات اللاتينية في بلاد الشام ١٠٩٧-١١٩٢" وذلك عام ١٩٤٧ ،واشتهر بكتابه (الحروب الصليبية) الذي نشر عام ١٩٥٦.

[71] Hans Eberhard Mayer, "America and the Crusades" Proceedings of the American Philosophical Society Vol. 125, No. 1 (Feb. 16, 1981), pp. 38-45.

لاستعراض أوليات ومراحل تطور الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية في الولايات المتحدة

[72] R.C. Smail ,"Review of Steven Runciman , A History of the Crusade ,Vol. I " EHR, Vol.68, No.266 (Jan.1953),p.85.

[73] Bernard Lewis ,"Review of Steven Runciman , A History of the Crusade Vol. I" BSOAS, Vol.15, 1953, p 397-398.

[74] Harold Lamb, "Review of Steven Runciman , A History of the Crusade Vol. I "Middle Eastern Journal, Vol. 5, ( Autumn 1951),p.513.

[75] Aziz S. Atya , "Review of Steven Runciman , A History of the Crusade Vol. I "Speculum, Vol. 27, No. 3 (Jul., 1952), p. 422 .
[76] Smail," Review…", p.85.
[77] Lewis ,"Review…" ,p.398 .
[78] A.C. Krey , ,"Review of Steven Runciman , A History of the Crusade ,Vol. I", AHR, Vol.57, No. 1 (Oct., 1951), pp. 117.
[٧٨]ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد ألباز العريني ،بيروت،دار الثقافة ،١٩٦٧)ج١ ،ص ١٢-١٣
[80] Smail ,"Review…" ,p.86
[81] A. C. Kray ," Review …",p.115.
[82] James Brundage, Recent Crusade Historiography: Some Observations and Suggestions" The Catholic Historical Review, Vol. 49, No. 4 (Jan., 1964), pp. 493
[83] Claude Cahen, Revue des Steven Runciman ,A History of the Crusades III" ,Revue Historique
T. 214, Fasc. 2 (1955), pp. 327-32
[84] Adolf Wass, Geschichte der Kreuzzuge ,( (Freiburg: Verlag Herder, 1956),pp.3-4 .
حيث أكد فاس إعجابه بالطابع الملحمي لكتاب رنسيمان
[85]Steven Runciman, Geschichte der Kreuzzüge: 1 Der erste Kreuzzug und die Gründung des Königreichs Jerusalem, aus dem Englischen übertr ,Peter de Mendelssohn (Munich,Bech ,1958)

[86] Steven Runciman , Geschichte der Kreuzzüge , (Zürich : Buchclub Ex Libris, 1960)
[87] Steven Runciman ,Histoire de Croisades ,trad. Denis A Canal; Guillaume Villeneuve ( Paris , Dagorno,1998-2000)
[٨٧]رنسيمان ، تاريخ ، ج٢ ،ص ٩
[٨٨]نفسه ،ج٣ ،ص١٤ .

[٨٩]نفسه ،ج٣،ص ٧٨٠

[91] Jean Richard, "Review of Steven Runciman, A History of the Crusade ,Vol. III", MEJ ,Vol. 9, No. 4 (Autumn, 1955), p.452 .
[92] Smail ,"Review…" ,p.86.
[93] Aitya," Review …" ,p. 423.
[94]Aziz S. Atiya, "Review of Steven Runciman , A History of the Crusades ,Vols. II&III ", Speculum ,Vol. 31,No.2 (Apr.,1956) p. 405.
[٩٤]انظر ص ٢٩.

[٩٥]رنسيمان ، تاريخ ، م٢ ،ص ١٠

[97] A. C. Krey , " Review of Steven Runciman , A History of the Crusades. Volume II ", AHR , Vol. 58, No. 3 (Apr., 1953), pp. 591-592 .
[98] Ibid., p.592.
[99] Atiya, "Review of Steven Runciman , A History of the Crusades ,Vols. II&III " ,p. 404 .
[100]Ibid.,404 .
[101] J . M. Hussey," Review of Steven Runciman , A History of the Crusades ,Vols.I&II&III" Journal of Hellenic Studies, Vol. 76,1956 ,p151.

[102] Claude Cahen " Revue des Steven Rumciman, A History of the Crusade ,II "
Revue Historique, Tome. 211, Fasc. 1 (1954), pp. 106.
[103] Harry Hazard ," Review of Steven Runciman , A History of the Crusades ,Vol.II" ,MEJ.
Vol. 8, No. 1 (Winter, 1954), pp. 98
[104] Atiya," Review of Steven Runciman , A History of the Crusades ,Vols. II&III " ,p. 404
[105] Cahen " Revue…" , p. 106.
[106] Clive," Sir Steven Runciman ",The Guardian.
[107] Liou ," Steven Runciman …", p.2.
[108] Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman " , p. XLVI ; Laiou, ," Steven Runciman …", p.1
[109] Constable ," Sir Steven Runciman "pp. 100-101 ; Mansel ," Steven Runciman ".
حيث ينقل كل من جايلز كونستابل وفيليب مانسل عن رنسيمان قوله ان الكتاب الوحيد الذي ينافسه بين نشريات هذه المطبعة العريقة هو الكتاب المقدس

[110] Constable ,"Sir Steven Runciman…"p.100.
[111] [111] Bryer ," Sir James Cochran Stevenson Runciman " , p. XLI .

[١١١] رنسيمان، تاريخ ج١٣،١

[113] Laiou ," Sir Steven Runciman… "p.2.
[114] Lewis."Review …" ,p397.
[115] Parry, "Review of Steven Runciman, History of the Crusades ,Vol. III"JRAS,1956 ,p.170 .
[116] Hussey," Review…", p.151 .
[117] Smail ," Review …",p.86.
[118] Gore Vidal, "Byzantine Mosaic", The Reporter, October 7, 1965, p.55.
[119] Ibid.,p55
[120] Richard Newhall ," Sinful Holy War, Review of Steven Runciman ,A History of the Crusade", The Saturday Review ,Jan. 1, 1955.p.57.
[121] Constable ,"Sir Steven Runciman…" ,p.101.
[122] Krey , " Review of Steven Runciman , A History of the Crusades. Volume II" ,p.591.
[١٢٢] تحدث الاستاذ الدكتور عبد المنعم رشاد (يرحمه الله )عن ضعف معرفة رنسيمان بالعربية وحرصه بالمقابل على تتبع المصادر العربية المترجمة الى اللغات الاوربية
[124] Jean Richard, "Revue des Steven Runciman, A History of the Crusade II "Syria, Tome
[125] Lewis ,"Review …",p.398.
[١٢٥] رنسيمان ، تاريخ ، ج١ ،ص ٢٠٧-٢٤٥ حيث عقد رنسيمان فصلا بعنوان الامراء والاميراطور

[127] Atiya , "Review…"
[128] Baldwin ," Review of Steven Runciman, A History of the Crusade Vol. II", The Catholic Historical Review, Vol. 39, No. 2 (Jul., 1953), p. 197.
[129] Lewis ,"Review…" p.399.
[١٢٩] رنسيمان ،تاريخ ،ج٢ ،ص٢٤٥ .

[١٣٠] نفسه، ج٣ ،ص٢٣٣.

[١٣١] نفسه ،ج٣ ،ص٢٣٤-٢٣٥.

[133] Marshal Baldwin ,"Review of Steven Runciman , A History of the Crusades Vol.III" The Catholic Historical Review, Vol. 41, No. 2 (Jul., 1955), pp. 201

[١٣٣] رنسيمان، تاريخ ،ج٣ ،ص ٧٩٧

[135] Lamb, "Review…",p.313

[136] Krey,"Review of Steven Runciman ,A History of the Crusade, Vol. I", p. 116.

[137] A. C. Krey, "Review of Steven Runciman ,A History of the Crusade, Vol. III", AHR, Vol. 60, No. 3 (Apr., 1955), pp. 591-593 p.593.

[138] Cahen ," Revue des Steven Runciman, A History of the Crusade III" ,p.328.

[139] ,Laiou ,"Sir Steven Runciman…",p 2.

[140] Baldwin"Review of Steven Runciman, A History of the Crusades Vol.III ",p.203.

[141] Richard,"Review…"p.452.

[142] Anon. "The Obituary of Sir Steven Runciman" .

[143] Kenneth Rexoth, "Unchristian Crusade", The Nation, 10 September 1955.

[144] Constable," Steven Runciman…" ,p2.

[145],Laiou ,"Sir Steven Runciman…",p 2.

[146] Walter Edbury ," British Historiography on the Crusades and Military Orders: from Ernst Parker and Smail to Contemporary Historians",( Cardiff ,Cardiff Historical Papers ,2007 ) p.2

[147] Jonathan Riley-Smith ," Crusade and fraternal Love" ,History Today ,1982, p 52

[148] Jonathan Riley-Smith ," The Crusading Movement and Historians" in Jonathan Riley-Smith (ed.) The Oxford History of the Crusade ,(Oxford ,Oxford University Press ,1999) ,p.10.

[149] Ibid., p.11.

[150] Ibid., p.12.

[151] Edbury " British…" ,p2.

[152] Ibid., p.14.

[153] Aziz S. Atiya , The Crusades : Commerce and Culture,( (Bloomington, Indiana, 1962).

[154] Riley-Smith ,"The Crusade and Historians".p.9.

[155] Constable ,"historiography …",p.20

[156] Riley-Smith ," Crusade of Fraternal Love…" ,p.52.

حيث نلاحظ هنا ان رايلي-سميث يعطي لمراجعته عنوان (الحب الاخوي).

[١٥٥] جوناثان ريلي- سميث، الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحرب الصليبية ،ترجمة محمد فتحي الشاعر (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٩ . ط٢ ،ص ١١٩

[158] Riley-Smith ," Crusade and Fraternal Love…" ,p52.

[١٥٧] ريلي – سميث ، الحملة الصليبية ،ص ٢١٣-٢١٤

[160] Riley- Smith ,"The Crusades and the Historians" ,p.8 .

[161] Ibid., p.14

[162] Geoffrey Barraclough," Deus de Volt" New York Review of Books,21 May 1970. http://www.nybooks.com/articles/archives/1970/may/21/deus-le-volt/?pagination=false

[162] Laiou," Steven Runciman…" p.2

[161] Laiou ," Steven Runciman…",p.2 .